قسم البلاغة والنقد

١- الدكتور/ رضا السعيد فايـــــد

نبأ ابني آدم في القرآن الكريم

دراسة بلاغية

جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية
بإيتاي البارود

نبأ ابني آدم في القرآن الكريم

دراسة بلاغية

الدكتور

رضا السعيد فايد

المدرس بقسم البلاغة والنقد
كلية اللغة العربية بإيتاي البارود

مُقَدِّمَة

الحمد لله الذى أنزل القرآن هدى للناس، وبينات من الهدى والفرقان، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله (ﷺ) وعلى آله وصحبه وكل من سار على نهجه واستن بسنته، وخدم الإسلام قرآنا وسنة اللهم آمين.

وبعد،،،

فقد جاء فى كتب السير والسنة ما رواه الحاكم وغيره عن ابن عباس (رضي الله عنهما): أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبى (ﷺ) فقرأ عليه القرآن، فكأنه رق له، فبلغ ذلك أبا جهل فأتاه فقال: يا عم إن قومك يرون أن يجمعوا لك مالا! قال: لم؟ قال: ليعطوكه؛ فإنك أتيت محمدا لتعرض لما قبله قال: قد علمت قريش أنى من أكثرها مالا، قال: فقل فيه قولا يبلغ قومك إنك منكر له أو إنك كاره له، قال: وماذا أقول؟ و الله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار منى ولا أعلم برجزه ولا بقصيده، منى ولا بأشعار الجن والله ما يشبه الذى يقول شيئا من هذا، ووالله إن لقوله الذى يقول حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو وما يعلى، وإنه ليحطم ما تحته... الحديث(١) هذه شهادة مشرك فى حق كتاب الله (ﷻ)، وهو صاحب لسان عربى أصيل خصم من الألسنة الحداد بهره عذوبة ألفاظ القرآن الكريم وجزالتها ودقتها وسمو معانيه، وأخذه بمجامع القلوب وعلوه على كل كـــلام.

---

(١) رواه الحاكم فى المستدرك كتاب التفسير رقم ٣٨٧٢ ــ ج٢ ص٥٥٠، ت. أ مــصطفى عبد القادر عطا. دار الكتب العلمية بيروت بدون.

إن الوليد يريـــــد أن يصف شيئا ما وقع فى نفسه، من جلال وجمال ما تلى عليه بصوت المصطفى (ﷺ) لقد أثبت للقرآن حلاوة، ولكن ما هى تلك الحلاوة وما كنهها؟ وما أسبابها؟ وكيف تلمسها؟، وهـــل لو تلمسناها سنقف عليها بالكلية والتفصيل؟ !.

لقـــد أثبت للقرآن الكريم طلاوة وهى الحسن والرونق والنضارة، فكيف وصل إلى ذلك، وما مدى هذا الحسن وتلكم النضارة؟ !.

ويدرك الوليد عموم نفعه من كل وجه فهو كشجرة لا تعدم الخير من ثمارها وفروعها، وتعطى كذلك من أصولها وجذورها فمعنى أغدقت الأرض أخصبت(١).

ومن أجل ذلك كله فإن القرآن الكريم يعلو على كل قول ولا يجابهه أى قول.

هذا ما جادت به قريحة اللسان العربى عند سماعه آيات معدودات من كتاب الله، حاول من خلالها وصف ما يجد فى نفسه.

ومهما وصف الواصفون وتكلم الناظمون، فى حق القرآن الكريم لن يوفوه حقه، لأن كل ما يتكلمون به ما هو إلا شئ بسيط مما يجدونه فى صدورهم، وحنايا مشاعرهم، فيحاولون اقتناص اللفظ الدال والجملة المعبرة عما تقشعر به جلودهم أو تلين عند سماع الذكر الحكيم.

وهذا من روعة جلال القرآن الكريم وعظيم بركته والتى طالما أكد عليها القرآن الكريم قال تعالى: ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ الأنعام: ٩٢، ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ الأنعام: ١٥٥.

---

(١) لسان العرب لابن منظور مادة غدق، دار صادر ــ بيروت.

﴿ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴾ الأنبياء: ٥٠، ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ ص: ٢٩، فهو كتاب عظيم البركة، وبركة القرآن لا نستطيع حصرها والوقوف عليها، فالقرآن الكريم: " مبارك بكل معانى البركة، إنه مبارك فى أصله باركه الله وهو ينزله من عنده، ومبارك فى محله الذى علم الله أنه له أهل ــ قلب محمد الطاهر الكبير، ومبارك فى حجمه ومحتواه، فإن هو إلا صفحات قلائل بالنسبة لضخام الكتب التى يكتبها البشر، ولكنه يحوى من المدلولات والإيحاءات والمؤثرات والتوجيهات فى كل فقرة منه،مالا تحتويه عشرات من هذه الكتب الضخام فى أضعاف أضعاف حيزه وحجمه... وأن الآية الواحدة تؤدى من المعانى، وتقرر من الحقائق ما يجعل الاستشهاد بها على فنون شتى من أوجه التقرير والتوجيه شيئا متفردا لا نظير له فى كلام البشر، وإنه لمبارك فى أصله وهو يخاطب الفطرة والكينونة البشرية بجملتها خطابا مباشرا عجيبا لطيف المدخل، ويواجهها من كل منفذ وكل درب، وكل ركن، فيفعل فيها مالا يفعله قول قائل، ذلك أن به من الله سلطانا "(١).

ومهما قيل فى معنى بركة القرآن الكريم، فلن نصل إلى مايشفى صدور قوم محبين لكلام رب العالمين.

ومن أجل تلك البركة التى لم ولن تنقطع؛ فإن القرآن الكريم بالرغم من كثرة الدراسات المتنوعة التى تناولته بالبحث والدراسة، فى شتى مجالات البحث،

---

(١) فى ظلال القرآن الشهيد سيد قطب ج٢ ص ١١٤٧،دار الشروق ط ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

فإنه لايزال بكرا ينادى كل مسلم مخلص ليضع بصمته فى خدمة كتاب الله (ﷻ).

ومن هذا المنطلق وجهت وجهى نحو كتاب الله (ﷻ) نصحا له واقترابا من مأدبته فكان هذا البحث:

نبأ ابني آدم فى القرآن الكـــريم
دراســة بلاغية

أبين فى رحابه شيئا من أسرار النظم وجمال المعاني وروعة التناسب، ورفعة المقصد، وكمال الأداء مما يفتح الله (ﷻ) به علـــيَّ.

ويعلم الله إننى قد دفعت فى تناول النبأ بدافع آخر هو الغيرة على مجتمعنا الإسلامى ومايحدث فيه، مع أننا مسلمون، ومسالمون ودِيننا هو دين الإسلام ورسالة السلام، وقرآننا فى كل معانيه السلام ورسولنا هو رسول السلام، وتحيتنا هى السلام، وجنتنا هى دار السلام، والملائكة يدخلون على أهلها فيلقون **(عليهم السلام)** وقيل المؤمنين فيها هو السلام.

فالإسلام سلام على الوجود كله، سلام على الإنس والجن والطير والحيوان، فما الذى تغير فى حالنا؟ وما الذى أصابنا؟.

إن مشاهد القتل وسفك الدماء تصدم عيوننا كل يوم، وأصبح رفع السلاح وإراقة الدماء شيئا عاديا لا يتحرج منه إلا من رحم الله (ﷻ).

إننا فى أمس الحاجة إلى استلهام هذا النبأ تدبرا وفهما واتعاظا حتى يتبين لنا كيف أن الله (ﷻ) حرم الدماء وكيف كانت عاقبة من يتجرأ على سفك هذه الدماء، وكيف أن الحسد والحقد والكراهية وغيرها من أمراض القلوب هى السبب فى كل ذلك.

وبالرغم من أن النبأ من فرائد القرآن الكريم فلم يذكر إلا فى سورة المائدة، فإننى عمدت إلى أن يأتى العنوان "**نبأ ابني آدم فى القرآن الكريم**" وليس فى سورة المائدة؛ ذلك لأننى قصدت إلى ربط النبأ بالسياق القرآنى العام تكثيرا للفائدة.

وقد اقتضت طبيعة البحث أن يأتى على هذا النحو:

أسباب اختياري للموضوع والمنهج المتبع فيه.

التمهيد: " فيـــــه: مبحـــــثان:

الأول: فى رحـــــــاب المنهج.

الثانى: ملامح القصة فى البيان القرآنى.

الفصل الأول:

نبأ ابنـي آدم فى السياق القرآنى العام

واشتمـــــل على:

تمهيد: تناولت فيه أهمية بيان لحمة التناسب القرآنـــــى.

المبحث الأول: علاقة النبأ بما قبله وبما بعـــده.

المبحث الثانى: علاقة النبأ بسورة المائـــدة مطلعا ومقصدا.

المبحث الثالث: علاقة النبأ بسور البقرة وآل عمران والنساء.

المبحث الرابع: علاقة النبأ بسورة الفاتحـــة.

المبحث الخامس: علاقة النبأ بالقرآن المدنى "النبأ فى سياقه النزولى".

الفصل الثانى:

فى رحاب الدراسة التحليلية للنبأ

ويشتمل على:

تمهيد تناولت فيه: عناصر قصة ابنى آدم.

المعنى العام للنبأ، ثم فى رحاب الدراسة التحليلية.

الخاتمة: وفيها أهم نتائج البحث، ثم ثبت المصادر والمراجـــع، وفهرســـت الموضوعات.

﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ البقرة: ٢٨٦

اللهم آمين وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الدكتور

رضا السعيد فايد

المدرس بقسم البلاغة والنقد

كلية اللغة العربية بإيتاي البارود

التمهيد ويتناول:

اولا: في رحاب المنهج

ثانيا: ملامح القصة في البيان القرآنى

أولا: في رحاب المنهج

يقول الله (ﷻ) فى مستهل سورة فصلت

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ﴾ **فصلت: ١ - ٣.**

فالقرآن الكريم رحمة من رحمات الرحمن الرحيم فصل الله آياته وبينها بهذا اللسان العربى المبين، فكان كلام الله (ﷻ) من ألفاظ العرب وتراكيبه من تراكيبهم، وسنة بيانه من سنة بيانهم، فتحداهم وهم القوم الخصمون، وهم القوم الذين سلقوا النبى بألسنة حداد، فعجزوا عن الإتيان ولو بآية من مثله، بل شهدوا له بالقوة والتأثير، فكانوا يتناصحون فيما بينهم كما جاء فى سورة فصلت:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ فصلت: ٢٦.

والقرآن الكريم منذ أن نزل وهو يلغى فيه وتمتد يد الطاعنين إليه، وأنى لهم أن ينالوا منه؟ والله لم يوكل حفظه لعالم كما فى التوراة والإنجيل قال تعالى:

﴿ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ﴾ المائدة: ٤٤.

بل أوكل الله حفظ كتابه لذاته العلية فقال: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ الحجر: ٩.

ومن حفظ الله (ﷻ) لكتابه أن هيأ العلماء الربانيين وفى مقدمتهم علماء البلاغة للذود عنه، ورد كيد الطاعنين إلى نحورهم، وتثوير معانيه واستبصار قدر من مراميه.

لكن الجديد اليوم هو الحرص الشديد على اللغو فى المنهج؛ إذ إن كثيراً من محاضن اللغة والثقافة فى وطننا العربي أخذ يبشر بنظريات نقدية مستجلبة من الغرب، محاولين فرضها على دراسة النص الأدبي، "ناظرين إلى التراث العربى كله من خلال مرايا مقعرة صغرت من حجمه وقللت من شأنه، ونظروا إلى التراث على أنه من شئون الماضى، ذلك الماضي الذى يجب أن تقوم معه قطعية معرفية(١)، فى الوقت الذى نظر فيه هؤلاء إلى معطيات الحضارة الغربية من خلال مرايا محدبة، عظمت حجمها، وأكبرت شأنها، وطغت على كل ماعداها(٢).

فنقرأ تحليل هؤلاء فلا نرى إلا إلغازا وتعمية، مع أن الهدف من التحليل هو إنارة النص وتفسيره وتحقيق معناه، وهؤلاء لم يقدموا حتى مقاربة لفهم النص.

---

(١) ينظر المرايا المقعرة د/ عبد العزيز حمودة ص ١٣ بتصرف. عـالم المعرفـة العـدد ٢٧٢.

(٢) المرايا المحدبة د/ عبد العزيز حمودة ص٧ عالم المعرفة العدد٢٣٢.

وإذا كانت هذه النظريات لم توقفنا على جماليات النص الشعري وأبعدتنا عن جو الشعر ذاته وشاعريته والإحساس به، فهل تستطيع أن تقترب من ساحة الإعجاز القرآني؟ !.

إن هذا الصنيع ما هو إلا لغو فى المنهج حتى نبتعد أكثر فأكثر عن مأدبة القرآن الكريم؛ لأن كل التراث الإسلامي بشتى صنوفه إنما نشأ لخدمة الإسلام: قرآنا وسنة، فكل هذه العلوم لم تكن هدفا فى ذاتها، وإنما فى خدمة كتاب الله (ﷻ) ومنها التراث البلاغي، الذى نشأ فى أحضان الدراسات القرآنية، فنفح منها واستوي على عوده من خلالها.

وهذا المنهج الذى نرى روحه عند عبد القاهر وتقسيماته عند السكاكي هو المنهج الذى يجب أن نتكئ عليه فى فهم النص القرآنى وغيره، ذلك المنهج الكاشف للدقائق المثور للمعانى، فيحدث التجاوب المطلوب، ويزداد الإحساس بالنص، فلا مناص من هضم تراث أهل العلم وفهمه، والاستنباط منه للتعامل مع النص "فالمناهج التى نشأت فى غير ديارنا لا تصلح مذهبا وإجراءً للنظر فى لغتنا، وفى بيان الوحى من قبل اللغة، فاللغة جزء من ثقافة كل أمة ولا يصلح ما أقيم لثقافة أمة أن يتخذ منهجا فى ثقافة أمة أخرى، فالثقافة أمر ذاتى، هى ابنة البيئة التى ولدت فيها ولاتنتج فى غيرها إلا شرا مستطيرا"(١).

كتبت تلك المقدمة قبل إلقاء الضوء على منهجى فى النبأ، وأنا مدفوع بغيرة شديدة على المنهج البلاغى الذى يريدون طمسه.

---

(١) سبل استنباط المعانى من القرآن والسنة أ٠د/ محمود توفيق سعد، ص١٣٥، مكتبة وهبة ط أولى بدون.

أما عن منهجى فى دراسة النبأ دراسة بلاغية، فإنى قبل كل شئ أستحضر عظمة الله (ﷻ) فلا يغيب عن عقلى وروعى قدسية البيان، فأحتاط لما أكتب وأضرع إلى الله حتى يفتح علىَّ من فيوضات عطائه ومواهبه، فتبل شفاهنا، وتنعم عقولنا بشئ من مكنون بيانه ومعانيه، فبدأت بذكر الملامح العامة للقصة القرآنية؛ ولأن القرآن الكريم كله فى حكم الجملة الواحدة، فوجدت أن النصح لكتاب الله يقتضى أن أتناول النبأ فى دراسة سياقية عامة أبين من خلالها، أوجه الاعتلاق بين النبأ وما قبله وما بعده، ثم موقع النبأ من سورة المائدة مطلعا ومقصدا، ثم أوجه الاعتلاق بين النبأ وسور البقرة، وآل عمران والنساء، ثم أوجه الاعتلاق بين النبأ وسورة الفاتحة، ثم أتناول النبأ ومناسبته للسياق النزولى أو القرآن المدنى.

وهذا المنهج أبر وأنسب لدراسة النبأ ذلك لأننا "فى سياق التلاوة نرى أربع دوائر يحيط بعضها ببعض وفقا لاتساع كل دائرة، فكل دائرة منها هى أقل اتساعا تقوم فى رحم الدائرة الأوسع، تلك الدوائر هى دائرة الآية، فالمعقد فالسورة فالقرآن الكريم، ويمكنك أن تقول هى خمس دوائر بجعلك الجملة دائرة تحيط بها دائرة السورة تحيط بجميع الدوائر دائرة السياق القرآنى الكريم"(١).

وهذا التدبر القائم على استبصار أوجه التناغى والاعتلاق على كافة مستويات الأداء القرآنى، الكلمة والجملة والآية، والمعقد، والسورة، والسور يعد كما يقول الدكتور / محمد أبو موسى:" بابا من أبواب البلاغة العالية التى تروع من غير أن تكون داخلة تحت مصطلح من مصطلحات متون علم البلاغة، لأنها

---

(١) العزف على أنوار الذكر معالم الطريق إلى فقه المعنى القرآنى فى ســياق الــسورة د/ محمود توفيق سعد، ص١٤٠ مكتبة وهبة، ط الثانية ١٤٢٤هـــ.

علاقات معان تتفق وتختلف وتتقارب وتتباعد، ولها فى تقاربها وتباعدها درجات كل ذلك بتدبير دقيق واعتبارات وسياقات ومقامات منها ظاهر وخفى"(١).

وهذا ما حاولت استبصاره فى دراسة النبأ ثم عرجت على الدراسة التحليلية لجزئيات النبأ ومن حاق التدبر فى النص القرآنى الكريم، أن أقف مع كل كلمة، وكل زحزحة، وكل جملة وتركيب، وكل فصل ووصل وحذف وذكر وتشبيه واستعارة، وجناس وطباق وغير ذلك من وجوه البيان، وصولا إلى شئ من معانى الجلال التى تزيد الإيمان، وتفتح الجنان، وتسعد الوجدان وتؤكد على أن هذا الكتاب تنزيل من حكيم يعلم السر فى السماوات والأرض، فيسلم العقل عن يقين واقتناع تام، أن هذا الكتاب الذى لاريب فيه لم ولن يأتيه باطل من بين يديه ولا من خلفه.

ويؤكد لنا الإمام عبد القاهر، أن طريق استبصار المعاني فى النص البليغ بله النص القرآنى الكريم، لا يناسبه الوصف المجمل والقول المرسل.

يقول الإمام: "لا يكفى فى علم الفصاحة أن تنصب لها قياسا وأن تصفها وصفا مجملا وتقول فيها قولا مرسلا، بل لا تكون من معرفتها فى شئ حتى تفصل القول وتحصل، وتضع اليد على الخصائص التى تعرض فى نظم الكلام، وتعدها واحدة واحدة، وتسميها شيئا شيئا، وتكون معرفتك معرفة الصنيع الحاذق

(١) من أسرار التعبير القرآنى فى سورة الأحزاب د/ محمد أبو موسى ص ٢٤، مكتبة وهبة ط الثانية ١٤١٦هـ.

الذى يعلم علم كل خيط من الإبريسم الذى فى الديباج، وكل قطعة من القطع المنجورة فى الباب المقطع وكل آجرة من الآجر الذى فى البناء البديع"([1]).

ويؤكد الشيخ عبد القاهر على وجوب التغلغل فى زوايا النص والتناغم معه فيقول: "واعلم أنك لا تشفى الغلة، ولا تنتهى إلى ثلج اليقين حتى تتجاوز حد العلم بالشئ مجملا إلى العلم به مفصلا، وحتى لا يقنعك إلا النظر فى زواياه والتغلغل فى مكامنه، وحتى تكون كمن تتبع الماء حتى عرف منبعه وانتهى فى البحث عن جوهر العود الذى يضع فيه إلى أن يعرف منبته ومجرى عروق الشجر الذى هو منه"([2]).

وهذا ما أحاوله فى استبصار النص القرآنى لكن أنى لى أو لغيرى أن يصل إلى كل عطاءات النص القرآنى؟!.

إن القرآن الكريم بفيض عطائه يحتاج إلى إرجاع البصر مرة بعد مرة، وفى كل مرة يمن الله بشئ من فيوضات المعنى الجليل، وبعد أن تكتب ما تكتب من نكات وأسرار، ثم تتركه وترجع إلى المصحف، فتكتشف أنك لم تكتب شيئا لأن بركة القرآن عطاء موصول من الله، وقديما قال الإمام: " هذا وليس إذا كان الكلام فى غاية البيان، وعلى أبلغ ما يكون من الوضوح أغناك ذاك عن الفكرة إذا كان المعنى لطيفا فإن المعانى الشريفة اللطيفة لابد فيها من بناء ثان على أول، ورد تال إلى سابق"([3]).

---

(١) دلائل الإعجاز: الشيخ عبد القاهر الجرجانى، ص ٣٧ تحقيق الشيخ / محمود شـــاكر ــ مكتبة الخانجى القاهرة، ط الخامسة ٢٠٠٤م.

(٢) السابق، ص ٢٦٠.

(٣) أسرار البلاغة الشيخ عبد القاهر الجرجانى ص ١٤٤، ت الشيخ/ محمود شاكر٠ مكتبة الخانجى ط أولى ١٩٩١م.

وهل هناك ألطف وأشرف من معانى القرآن الكريم؟!

فعلى الدارس للنص القرآنى أن يمعن النظر ويعيش فى النص القرآنى وأن يحضر معه كل أجهزة وأدوات التلقى والاستجابة والتأثر والانفعال فى كيانه الإنسانى ليتفاعل مع القرآن ويأخذ منه.

فالنص القرآنى يطلق شحنات كامنة من معانيه ويفيض فيوضات دافقة من أنواره، ولكنها لا يقتنصها ويدركها ويتعرض لها إلا من كان يقظا لها متفاعلا معها حاضرا بكل كيانه لحظتها(١).

والله أسأل أن أكون من هذا الصنف

(١) ينظر: مفاتيح للتعامل مع القرآن، د/ صلاح الخالدى ص ٨٧ ومابعدها، دار القلم دمشق ط، الثانية ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م.

ثانيا: ملامح القصة في البيان القرآني

قال تعالى :﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ ﴾ آل عمران: ٦٢.

﴿ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ الأعراف: ١٧٦.

﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ هود: ١٢٠.

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ ﴾ يوسف: ٣.

﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ يوسف: ١١١.

هـــذا كلام الله عن قصص القرآن الكريم، يظهر منه أهمية هذا القصص وهدفه وعلو منزلته، وفائدته، وكيف يتجاوب المتلقى معه، وماذاك إلا لعظيم تأثير القصة القرآنية فى النفس والوجدان والعقل.

وقد عرف أهل العلم القصة، بأنها الإخبار عن أحوال الأمم الماضية والنبوات السابقة والحوادث الواقعة(١)، وينظر الإمام الرازى للقصة القرآنية من خلال الهدف والقصد منها فيعرفها عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ

(١) ينظر: دراسات فى علوم القرآن، أ٠د/ فهد الرومى ص ٦٠٧، مكتبة الملك فهد، الطبعة الرابعة عشرة ١٤٢٦هـــ/ ٢٠٠٥م.

﴿ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾ آل عمران: ٦٢، فيقول (رحمه الله): "والقصص هو مجموع الكلام المشتمل على مايهدى إلى الدين، ويرشد إلى الحق، ويأمر بطلب النجاة"(١).

والقصة فى القرآن الكريم جزء من نسيجه القوى لا تساق تسلية أو حديث خرافة، وتلهية للناس، وإنما هى جزء من موضوعه الذى يركز عليه منزله ليسوق كل حجة، ويقدم كل دليل على صدق هذا النبى، وليدحض كل حجة يأتى بها خصومه(٢).

فالقصص شعبة جليلة من شعب القرآن الكريم، اختصه الله منه بنصيب كبير لمكانه من الدعوة، وحسن بلائه فى المعاونة على أدائها، فإن تكن شعبه الأخرى هدى وإرشادا، وشرعا، ونظاما،وتقويما، وإصلاحا، فإن القصص هو الزاد الإلهى الذى يمد الله به رسوله فى رحلته البعيدة المدى الكثيرة الهموم والثقيلة(٣).

وقد حلا لبعض الباحثين فى القصة القرآنية، تطبيق المقاييس النقدية للقصة الأدبية على قصص القرآن الكريم، ليثبت أن كتاب الله (عز وجل) قد جاء فى هذا المضمار الفنى بما تشهد له أحكامنا النقدية الحديثة، وقد غفل بذلك عن حقيقة واضحة، هى أن الأسلوب القرآنى ينفرد بطابعه الخاص المعجز سواء فى

(١) التفسير الكبير، "مفاتيح الغيب" الإمام الرازى، ج٨ ص ٩٢، دار الفكر العربى، بدون.

(٢) بدائع الإضمار القصصي فى القرآن الكريم، د/ كاظم الظواهرى، ص٣٠، ط أولى ١٤١٢هـ/١٩٩١م.

(٣) ينظر: مع القرآن الكريم فى دراسة مستلهمة، أ/ على النجدى ناصف، ص١٩، دار المعارف، بدون.

القصة أو غيرها من فنون القول، وأن كل محاولة لتطبيق المقاييس المشتهرة عليه لا ترقى إلى تفسير إعجازه الصريح(١).

إن المتدبر الحق يعايش القصة القرآنية فيستجلى مكونات جمالها وعبقرية أدائها وعناصر تشويقها، وتتابع أحداثها، محاولا الوصول إلى شئ من مقاصدها التى من أجلها كان الإنزال، غير عابئ بمقاييس نقدية يختلف عليها، وتتطور وتتغير، بل إن الأبر بمقام القصة القرآنية أن تكون هى الأساس الذى نقيس عليه أى مقياس نقدى، فما تقبله القصة القرآنية نقبله،وما تقيمه نقيمه،وما ترفضه نرفضه أسلوبا، وصياغة، وبناء، ومضمونا، وقيما.

ونستطيع أن نرصد بإيجاز السمات الأسلوبية العامة للقصة القرآنية والتى تتلخص فيما يلـــــى:ــ

١ــ تعتمد القصة القرآنية أسلوب التشويق جذبا لإحساس السامع وصولا إلى أعلى درجات التأثير والإقناع.

٢ــ تتميز القصة في القرآن الكريم بأنها تمتزج بموضوعات السورة التى ترد فيها امتزاجا عضويا لامجال فيها للفصل بينها وبين غيرها من موضوعات السورة فالقصة لا ترد إلا إذا تطلبها المقام واقتضت البلاغة ذكرها، ويذكر الجزء الذى له علاقة بموضوع السورة.

٣ــ التكرار، فكثير من القصص القرآنى قد تكرر فى أكثر من سورة، وفى كل مرة تركز القصة على حدث من الأحداث الكثيرة الذى يتخلل القصة مما يخدم السياق العام للسورة، على أن هذا التكرار ليس تكرارا مطلقا وإنما هو

---

(١) البيان القرآنى د/ محمد رجب البيومى، ص ١٤٦، الدار المصرية اللبنانيـــة، ط الثانيـــة ١٤٢٦هـــ / ٢٠٠٥م.

تكرار نسبى بمعنى أن الغرض الدينى هو الذى يملى إعادة القصة، ولكنها فى هذه الإعادة تلبس أسلوبا جديدا، وتخرج إخراجا جديدا يناسب السياق الذى وردت فيه، وتهدف إلى هدف خاص لم يذكر فى مكان آخر حتى لكأننا أمام قصة جديدة لم نسمع بها من قبل.

٤ــ تنوع ورود القصة فى القرآن الكريم، فقد تأتى فى أكثر من سورة، وقد لاتذكر إلا مرة واحدة مثل قصة يوسف (عليه السلام) وهى قصة مبسوطة الأحداث، ومثل نبأ ابنى آدم وهى قصة فى قمة الإيجاز والتركيز، وذلك من براعة الإعجاز،فقد أتى النظم الحكيم بكافة أنواع القصص من حيث البسط والإيجاز، والإفراد والتكرار، فلم يقدر مخالف على معارضة المكرر ولا غير المكرر والإعجاز واضح لمن تأمل.

٥ــ الانتقاء فى الأحداث، والإضراب عن بعضها جملة وتفصيلا تركيزا وتكثيفا على الحدث المذكور وحتى يترك للعقل فسحة يتصور من خلالها المحذوف مما يحدث مشاركة وجدانية بين النص القرآنى والمتلقى وفى ذلك تمام الفائدة.

٦ــ المحاورات من سمات القصص القرآنى وما كان ذلك إلا لقدرتها على بيان مدى المقاومة بين أطراف الحوار، تلك المقاومة التى تجسم صراعا بين قوى مريدة، وأخرى مانعة قاهرة،والمحاورة بين هذه القوى هى التى تؤدى إلى تصعيد الحدث إلى ذروة تنتهى بتغلب إحدى القوتين أو المجموعتين على الأخرى لتحدد نهاية القصة كما فى قصة ابني آدم.

٧ــ تنوع طريقة الابتداء فى عرض القصة فمثلا مرة يذكر ملخصا للقصة ثم تعرض التفصيلات بعد ذلك، وذلك كقصة " أهل الكهف " فهى تبدأ هكذا ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ۝ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ

إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴾، فذلك ملخص للقصة ثم تبعه التفصيل، وتارة تذكر القصة مباشرة بلا مقدمة ولا تلخيص مثل قصة ابنى آدم، ولكل وجهته.

٨ــ القصة فى القرآن المكى أطول منها فى القرآن المدنى، وأكثر احتفالا بالحوادث وأقرب إلى الشكل الفنى للقصة التى تبدأ بمقدمة وتعرف وعقدة وحل يؤدى إلى نجاة عنصر الخير، وهلاك عنصر الشر، ثم بدأت القصة تتقلص فى أخريات العهد المكى وأكثر قصص القرآن المدنى أقرب إلى الخبر منه إلى القصة إلا قليلا منه ورد تاما كقصة ابنى آدم.

٩ــ القصص القرآنى لشدة إيجازه وإحكامه تكاد كلماته تتحول رموزا تنطوى كل كلمة منها على معان كثيرة، لذلك فإن الفهم الدقيق لإيحاءات القرآن وإشاراته تستدعى يقظة متواصلة فى قراءته، وفكرا واعيا لتدبر مراميه وحسا مرهفا لتذوق معانيه.

١٠ــ القصة فى القرآن الكريم ليست عملا فنيا مستقلا فى موضوعه وطريقة عرضه وإدارة حوادثه ــ كما هو الشأن فى القصة الفنية الحرة التى ترمى إلى أداء غرض فنى طليق ــ إنما هى وسيلة من وسائل القرآن الكثيرة إلى أغراضه الدينية، والقرآن كتاب دعوة دينية قبل كل شئ، والقصة إحدى وسائله لإبلاغ هذه الدعوة وتثبيتها.

١١ــ قوة التأثير فالقصة أقرب الوسائل التربوية إلى فطرة الإنسان وأكثر العوامل النفسية تأثيرا فيه وذلك لما فى الأسلوب من المحاكاة لحالة الإنسان نفسه فتراه يعيش بكل كيانه فى أحداث القصة وكأنه أحد أفرادها بل وكأنه بطل القصة أو الشاهد فيها فيرى من خلالها كل من الصالح والطالح ما فى نفسه من أحاسيس وما فى خلده من أحاديث، ومايجرى حوله من أحداث وحوار كل ذلك

من خلال تجاوبه مع القصة فالقصة لا سيما إن كانت بأسلوب شيق وبيان رائق لها من التأثير والجاذبية مالاتبلغه أى وسيلة أخرى من الوسائل الدعوية أو التعليمية أو التربوية فكيف إذا كانت بأسلوب ربانى معجز له من الواقعية والصدق ودقة التصوير ومن السمات ما ليس لغيره.

١٢ــ الشمولية المطلقة، فقصص القرآن الكريم شاملة من عدة جهات منها: مخاطبة كافة النفوس والطباع ومكامن الشعور، وهى شاملة فى تنويع الأساليب والوسائل الملائمة لكل جنس وطبقة ولون، وهى شاملة من حيث الزمن فالقصة القرآنية تتحدث عن الماضى والحاضر والمستقبل، ومن حيث الموضوعات نجد القصص القرآنى شاملا لكافة الموضوعات من عقائد وعبادات وأخلاق وآداب اجتماعية واقتصادية وسلطانية وغير ذلك(١).

(١) ينظر فى هذه السمات: التصوير الفنى فى القرآن الكريم الشيخ/ سيد قطب، ص ١٤٣، دار الشروق، ط السادسة عشره ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م ومابعدها، والجانب الفنى فى قصص القرآن الكريم د/ عمر محمود عمر، ص ٨٩ ومابعدها، دار المأمون للتراث، ط أولى ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م، وبدائع الإضمار، د/ كاظم الظواهرى ص٣٠ ومابعدها، والإعجاز القصصى فى القرآن، د سعيد مطاوع، ص ٢٤٠ ومابعدها، ط أولى ٢٠٠٦م، والقصص القرآنى وأثره فى استنباط الأحكام، د/ أسامة حمزة ص ١٤ ومابعدها، ط الثانية ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م، والتعبير الفنى فى القرآن الكريم، د بكرى شيخ أمين، ص ٢٢٣ ومابعدها، دار العلم للملايين، ط أولى ١٩٩٤م، ودراسات فى علوم القرآن د/ فهد الرومى، ص ٦٠٧ وما بعدها، وروائع الإعجاز فى القصص، القرآنى د/ محمود السيد حسن، ص ٧٢ ومابعدها، المكتب الجامعى الحديث، ط ١٩٨٢م، والوحدة الفنية فى القصة القرآنية، د/ محمد الدالى، ص ١٥ ومابعدها، ط أولى ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م، وعلوم القرآن د/ عدنان زرزور، ص ٣٥٧ نشر المكتب الإسلامى، ط أولى ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

الفصل الأول

نبا ابني آدم في السياق القرآنى العام

تمهيد:

إن النصح لكتاب الله (ﷻ) يقتضى دراسة النبأ من خلال سياقات التناسب المختلفة؛ لأن هذا الأمـــر يعد وجها عظيما من وجوه إعجاز القرآن الكريم التي لاحصر لها.

فعلى كون القرآن قد نزل منجما فى أحكام مختلفة شرعت لأسباب مختلفة، وبسبب الوقائع والمناسبات وعلى مدى نيف وعشرين سنة(١)، إلا أن ثمة ترابطا محكما بين تلك السور والآيات، حيث جاءت كل سورة وكل آية فى مكانها المناسب، بالنسبة إلى ما قبلها وإلى ما بعدها، فجاءت عقودا منتظمة أحسن نظام يكمل بعضها بعضا(٢).

ودراسة النص القرآنى من خلال التماس أوجه الاعتلاق المختلفة، يعد رداً قويا على من يطعن فى القرآن الكريم من هذا الوجه، فيزعم أن الأولى ترتيب سور القرآن وفق ترتيب النزول(٣).

---

(١) معترك الأقران فى إعجاز القرآن، الـــسيوطى ج١ ص٥٦ ت٠ أ/علـــى البجـــاوى، دار الفكر العربى مصر.

(٢) ينظر: مقدمة تحقيق كتاب مراصد المطالع فى تناسب المقـــاطع والمطـــالع، الـــسيوطى ص١٢٠ ت، د عبد المحسن العكر، مكتبة دار المنهج فى النشر والتوزيع، الرياض، ط أولى ١٤٢٦هـــ،

(٣) ينظر: فى هذه الافتراءات: آراء المستشرقين حول القرآن وتفسيره، د/ عمر إبراهيم ج٢ ص ٤٩٢ ومابعدها، دار طيبة للنشر، الرياض، والسيرة النبوية وأوهام المستـــشرقين أ/ عبد المتعال الجابرى ص٢٧، ومابعدها، نشر مكتبة وهبة، بدون، والقرآن نزوله تدوينه، ترجمته، وتأثيره بلاشير ص٣٣، ترجمة رضا سعادة، دار الكتاب اللبنانى٠ بيروت٠ ط أولى ١٩٧٤م٠

ومن أجل ذلك "فكل دارس ومتدبر لشئ من الوحى بيانا وتبيانا عليه فريضة عين أن يقيم حركة درسه وتدبره فى حديقة مقصد القرآن الكلى الأعظم، لا يند عنها، ولايتسلل إلى خارجها"(١)، فالمتدبر للنص القرآنى يجب أن يكون فى حركة متصاعدة حتى ينتهى إلى بيان كافة أوجه الاعتلاق المبثوثة فى السياق القرآنى العام.

هــذا وقد ورد النبأ فى سورة المائدة من الآية رقم (٢٧) وحتى الآية (٣١).

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ المائدة: ٢٧ – ٣١

وسوف نبين قبل تحليل الآيات بلاغيا علاقة النبأ بأوجه السياقات القرآنية المختلفة.

(١) سبل استنباط المعانى من القرآن والسنة، د/ محمود توفيق ص٦٣.

المبحث الأول:

علاقـــة النبأ بما قبله وبما بعـده

جاء قبل النبأ قصة امتناع بنى إسرائيل عن دخول أرض الجبارين وكيف أن الله عاتبهم بالتيه فى الأرض أربعين سنة، فكانت نهاية قصتهم:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ ۗ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ المائدة: ٢٦٠.

ثـــم كان أمر الله (ﷻ) لنبيه (ﷺ) بتلاوة النبأ:

"**واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحـــــق**.. "الآيـــات"

وقد تعددت رؤى أهل العلم فى بيان العلاقة بين النبأ وقصة دخول الأرض المقدسة، فذكر الرازى أن الله (ﷻ) أمر النبى (ﷺ) أن يذكر لليهود حديث ابنى آدم ليعلموا أن سبيل أسلافهم فى الندامة والحسرة الحاصلة بسبب إقدامهم على المعصية كان مثل سبيل ابنى آدم فى إقدام أحدهما على قتل الآخر(١).

ويوضح البقاعى ذلك فيذكر أن فى قصة بنى إسرائيل إحجامهم عن قتال أعداء الله، البعداء منهم المأمورين بقتالهم الموعودين عليه بخيرى الدارين وأن الله معهم فيه وفى قصة ابنى آدم إقبال قابيل على قتل أخيه، حبيب الله المنهى عن قتله المتوعد بأن الله يتبرأ منه إن قتله، ففى ذلك تأديب لهذه الأمة عند كل إقدام وإحجام(٢).

---

(١) ينظر: التفسير الكبير "مفاتيح الغيب" فخر الدين الرازى، ج١١ ص ٢٠٨.

(٢) نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور، البقاعى ج٢ ص ٤٥، ت أ/ عبد الرازق غالـــب المهدى، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان.

وهــذا المعنى هو ما عبر عنه الطاهر ابن عاشور فقال:" والمناسبة بينها ــ أى قصة ابنى آدم ــ وبين القصة التى قبلها مناسبة تماثل ومناسبة تضاد"([1])، وأخذ يبين ذلك بمالايخرج عن كلام البقاعى فقال:" فأما التماثل فإن فى كلتيهما عدم الرضا بما حكم الله تعالى: فإن بنى إسرائيل عصوا أمر رسولهم إياهم بالدخول إلى الأرض المقدسة وأحد ابنى آدم عصى حكم الله تعالى بعد قبول قربانه لأنه لم يكن من المتقين وفى كلتيهما جرأة على الله بعد المعصية، فبنوا إسرائيل قالوا: اذهب أنت وربك وابن آدم قال: لأقتلن الذى تقبل الله منه، وأما التضاد فإن فى إحداهما إقداما مذموما من ابن آدم، وإحجاما مذموما من بنى إسرائيل، وإن فى إحداهما اتفاق أخوين هما موسى وأخوه على امتثال أمر الله تعالى وفى الأخرى اختلاف أخوين بالصلاح والفساد"([2]).

وتكاد تتفق كلمة أهل العلم على أن العلاقة الجامعة هى بيان عاقبة العصيان فى قصة الجبارين، وفى قصة ابنى آدم.

ويلمح ــ أيضا ــ من وجوه التناسب بينهما أن قصة اليهود مع موسى حين أمرهم بالدخول فى الأرض المقدسة فأبوا ماهو إلا نقض أجدادهم للعهد،أما نقض الأحفاد الذين شهدوا الوحى، فإنه ماثل فى عدم الوفاء بالإيمان بالنبى العربى وفى وفائهم بما تعاهدوا عليه معه (ﷺ) منذ أن وصل إلى أرض الهجرة، وكان من أسباب ذلك كله حسدهم للنبى (ﷺ) ومما حوى هذه المعانى، قصة ابنى آدم فهى أول صورة من صور الإفساد فى الأرض ونقض عهد الخلافة، وفى قصة ابنى آدم دلالة على أن هذا الإفساد الذى وقع من أحدهما

---

(١) التحرير والتنوير، الطاهر ابن عاشور، ج٦ ص ١٧٤، دار سحتون للنــشر والتوزيــع تونس، ط ١٩٩٧م.

(٢) السابق والصفحة.

أساسه الحسد الذى هو أساس صدود اليهود عن البنى (ﷺ) فعلاقة قصة ابنى آدم بما قبلهـــا من حديث عن بنى إسرائيل علاقة جـــد وثيقة ولشدة وثاقتها كانت دفينة متغلغلة لاتتراءى للنظـــرة العجلى(١).

ونستطيع أن نذكر أيضا أن الخوف من الله (ﷻ) كان العامل الأساسى فى تشكيل الأحداث فى قصة بنى إسرائيل، وفى قصة ابنى آدم؛ فالخوف من الله دفع الرجلين إلى نصح القوم بدخول الأرض المقدسة لقتل الجبارين تسليما وانقيادا لأوامر الله (ﷻ).

والخوف من الله منع المقتول من بسط يده لأخيه بالقتل، وعدم الخوف من الله كان سببا فى عدم دخول الأرض المقدسة لقتل الجبارين، وكان عاقبة ذلك التيه فى الأرض ووصفهم بالغش، وفى نبأ ابنى آدم كان عدم الخوف من الله (ﷻ) سببا فى إقدام القاتل على جرمه وكان عاقبه ذلك الخسران والندم.

فالقصتان متماثلتان فى الأسباب والنتائج، فنوازع الخير والشر متأصلة فى بنى الإنسان ونتائجهما ثابتة بالحق منذ أن وضع الله الميزان، فمن وعى ذلك أطاع الله (ﷻ) وأطاع نبيه، وفى ذلك تحذير من عاقبة عصيان الله (ﷻ)، ودرس لليهود وغيرهم من عاقبة تكذيب النبى (ﷺ) وعدم الإيمان به.

أما علاقة النبأ بما بعده، فقد كان هذا النبأ بمثابة التمهيد لهذا الحكـــــــم:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴾ المائدة: ٣٢.

---

(١) ينظر: سبل استنباط المعانى من القرآن والسنة د/ محمود توفيق ص ١٨٦.

فقد جاءت الآية نتيجة لما سبقها، "فمن أجل وجود هذه النماذج فى البشرية،من أجل الاعتداء على المسالمين الوادعين الخيرين الطيبين الذين لا يريدون شرا ولاعدوانا...ومن أجل أن الموعظة والتحذير لا يجديان فى بعض الجبلات المطبوعة على الشر وأن المسالمة والموادعة لا تكفان الاعتداء حين يكون الشر عميق الجذور فى النفس"(١).

فمن أجل ذلك كله كان هذا التشريع، فالنبأ ينفر من خلال الأسلوب القصصى من تلك الجريمة النكراء وبذلك يهيئ النفوس أتم تهيئة لتلقى هذا التشريع، تعظيما لحرمة الدم وتكريما وصونا لبنى الإنسان أيما كان دينه وجنسه فالنفس فى ذاتها محترمة لا يجوز المساس بها إلا بالحق والحكم عام، "وتخصيص بنى إسرائيل بالذكر لأن السياق فى تعداد جناياتهم ووقع التغليظ فيهم إذ ذاك لكثرة سفكهم للدماء وقتلهم للأنبياء"(٢).

وبذلك يتبين أن النبأ له عطاء ممتد إلى ما قبله فقد جمع بينهما عصيان الله (ﷻ) والإعراض عنه فكان الضنك أيا كان صورته، والنبأ له عطاء ممتد إلى مابعده فكانت علاقته بما بعده علاقة المسبب بسببه، وبذلك يتسق النظم وتنساب المعانى التى يربطها ويشد بعضها إلى بعض ذلك التناسب والتلاقى الذى يجمع بين النبأ وما قبله وما بعده.

---

(١) فى ظلال القرآن الشيخ، سيد قطب، ج٢ ص ٨٧٧.

(٢) فتح البيان فى مقاصد القرآن، أبو الطيب صديق القنوجى، ج٢ ص ٢٤٨ ت، أ/ إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية بيروت، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م، وينظر: دراسات فى التفسير الموضوعى للقصص القرآنى، د/ أحمد جمال العمرى ص ١٦٩، مكتبة الخانجى القاهرة، ط الثانية ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.

المبحث الثانـي:

علاقـــة النبأ بسورة المائـــدة:

مطلعاً ومقصـدا

إن الحديث هنا عن العلاقة بين النبأ، وكافة المستويات داخل سورة المائدة "فالسورة مهما تعددت قضاياها فهى كلام واحد يتعلق آخره بأوله، وأوله بآخره، ويترامى بجملته إلى غرض واحد كما تتعلق الجمل بعضها ببعض فى القضية الواحدة، وأنه لاغنى لمتفهم نظم السورة عن استيفاء النظر فى جميعها كما لاغنى عن ذلك فى أجزاء القضية"([1]).

ولعل الدلالة لكلمة سورة تساعد على هذا الفهم الناظر إلى اعتبار أجزاء السورة كلاً متكاملاً.

فالسورة تمام جملة من المسموع محيط بمعنى تام بمنزلة إحاطة السور بالمدينة، ويلمح السيوطى فى الإتقان معنى آخر للسورة فيقول: سميت سورة لتركيب بعضها على بعض، من النتور بمعنى التصاعد([2])، فالسورة ذات وحدة موضوعية، ولايتصور ذلك إلا بوجود الخيط الواصل بين أجزاء السورة، وهذا ما أكد عليه الطاهر ابن عاشور فقال: "السورة قطعة من القرآن معينة بمبدأ ونهاية لا يتغيران، مسماة باسم مخصوص تشـــتمل على ثـــلاث آيات فأكـــثر فى غرض تام ترتكز عليه معانى آيات تلك السورة ناشئ عن أسباب النزول أو

---

(١) الموافقات فى أصول الشريعة، أبو إسحاق الشاطبى، ج٣ ص ٤١٥ ت، الشيخ عبـــد الله دراز، المطبعة الرحمانية بدون.

(٢) ينظر: الإتقان فى علوم القرآن، السيوطى ج١ ص ١٦٦ ت، د/ مصطفى البنا دار ابـــن كثير، ط الثانية، ١٤١٤هـــ/ ١٩٩٣م.

عن مقتضيات ما تشتمل عليه من المعانى المتناسبة(١)، ولأجل ذلك التلاحم بين أجزاء السورة فإن المتدبر إذا أراد ضربا أعلى من رقائق المعانى، ولطائفها فإنه يتخذ دائرة السورة مجالا يعمل فيه بصيرته وفراسته البيانية، فإن لكل سورة سياقا يوحد نسب آياتها، ويحقق الرحم القائم بينها ومراعاة ذلك السياق فيه البر برحم المعنى القرآنى فى السورة، وفى نور السياق الممتد للسورة يتبين للمتدبر كثيرا من اللطائف(٢).

وسورة المائدة مطلعها هو قول الله (ﷻ):﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾ المائدة: ١.

ومقصد السورة: "الوفاء بما هدى إليه ودل عليه ميثاق العقل من توحيد الخالق ورحمة الخلائق شكرا للنعمة واستدفاعا للنقمة"(٣).

أما عن علاقة النبأ بمطلع السورة، فبداية أقول: إن علماء البلاغة جعلوا من مواضع التأنق فى الكلام حسن المطلع فابن رشيق يقول: "الشعر قفل أوله مفتاحه وينبغى للشاعر أن يجود ابتداء شعره، فإنه أول ما يقرع السمع وبه يستدل على ما عنده من أول وهلة"(٤).

---

(١) التحرير والتنوير، ج١ ص ٨٤.

(٢) ينظر: العزف على أنوار الذكر، د/ محمود توفيق سعد٠ ص ١٨.

(٣) مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، البقاعى، ج٢ ص ١٠٦ ت، د/ عبد السميع حسنين ــ مكتبة المعارف، الرياض.

(٤) العمدة فى محاسن الشعر وآدابه لابن رشيق، ج١ ص ٢١٧٠ ت، أ/ محمد محى الدين عبد الحميد، دار الجيل للنشر والتوزيع، ط الخامسة ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

ويقول الجاحظ: "إنه لا خير فى كلام لايدل أوله على معناك، ولايشير إلى مغزاك وإلى العمود الذى قصدت والغرض الذى إليه نزعت"(١).

وإذا كان ذلك مطلوبا فى دنيا الإبداع البشرى، فما بالنا بحال الإعجاز القرآنى، ولذلك يذكر الخطيب أن أحسن الابتداءات ما ناسب المقصود وأن جميع فواتح السور وخواتمها واردة على أحسن وجوه البلاغة وأكملها ويظهر ذلك بالتأمل فيها مع التدبر(٢).

وقد جاء المطلع الكريم لا أقول مناسبا للنبأ فقط بل مناسبا لكل آيات السورة ودالا على مغزاها ومعناها، فقد افتتح الله (ﷻ) هذه السورة بقوله:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾ المائدة: ١.

وفيها من البلاغة ما يتقاصر عنده القوى البشرية مع شمولها أحكام عدة منها الوفاء بالعقود ومنها تحليل بهيمة الأنعام ومنها استثناء ما سيتلى مما لا يحل، ومنها تحريم الصيد على المحرم ومنها إباحة الصيد لمن ليس بمحرم، وقد حكى أن أصحاب الفيلسوف الكندى قالوا له: أيها الحكيم اعمل لنا مثل هذا القرآن، فقال نعم أعمل مثل بعضه فاحتجب أياما كثيرة ثم خرج فقال والله ما أقدر ولا يطيق هذا أحد، إنى فتحت المصحف فخرجت سورة المائدة، فنظرت

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ، ج١ ص ١٦ ت، أ/ فوزى عطوى، دار صعب، بيروت ط أولى ١٩٨٦م.

(٢) ينظر: الإيضاح الخطيب القزوينى، ج٦ ص ١٤٩ ت، د/ محمد خفـــاجى، دار الجيـــل، بيروت.

فإذا هو قد نطق بالوفاء، ونهى عن النكث، وحلل تحليلا عاما، ثم استثنى بعد استثناء ثم أخبر عن قدرته وحكمته فى سطرين(١).

فالمطلع يفيض منه نمير المعانى على كل أجزاء السورة، "فقد نادى الله المؤمنين بوصف الإيمان ليحثهم على امتثال ما يكلفهم به، فإن شأن المؤمنين الانقياد لما يكلفون به من ربهم، فيا من اتصفتم بالإيمان ونبذتم كل ما يدعو إليه الشيطان أوفوا بالعقود أى العهود التى عقدتموها بينكم وبين الله أو بينكم وبين الناس وهى التكاليف التى عقدتموها بينكم وبين الله أو بينكم وبين الناس، وهى التكاليف التى ألزمكم الله بها والتزمتموها، مما أحل الله وحرم"(٢).

وهذا المعنى يقع موقعه من النبأ، فأولى شئ يفى المسلم به فى شأن التكاليف أن يعظم حرمة الدماء، فسفكها أعظم نقض للعهد مع الله (ﷻ) فالوفاء به من أخلاق المتقين الذين يخافون الله (ﷻ)، وهذا ما تمثل فى سماحة الأخ المقتول:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾

وعدم الوفاء بهذا العهد من أعظم المفاسد التى رتب الشرع عليها الخسران والخلود فى النيران، فالعلاقة بين النبأ ومطلع السورة جد واضحة ووثيقة، إذ دل المطلع من أول الأمر على أن السورة ستهتم بالتشريع، وأمر الحلال

---

(١) ينظر: فتح البيان فى مقاصد القرآن القنوجى ج٢ ص ١٩٧.

(٢) التفسير المنير فى العقيدة والشريعة والمنهج، د/ وهبة الزحيلـــى، ج٣ ص ٤١٥٠، دار الفكر، ط العاشرة ١٤٣٠هـــ/ ٢٠٠٠م.

والحرام الذى هيمن على السورة، وكان النبأ مهيئا لأهم تشريع عن طريق التخويف من ارتكاب جريمة القتل، وبيان عاقبة ذلك.

أما عن علاقة النبأ بمقصد السورة فمعلوم أن " كل سورة لها مقصد واحد يدار عليه أولها وآخرها ويستدل عليه فيها، فترتب المقدمات الدالة عليه على أتقن وجه وأبدع نهج وإذا كان فيها شئ يحتاج إلى دليل استدل عليه، وهكذا فى دليل الدليل، وهلم جرا، فإذا وصل الأمر إلى غايته ختم بما منه ابتدأ، ثم انعطف الكلام وعاد النظر عليه على نهج آخر بديع، ومرقى غير الأول منيع، فتكون السورة كالشجرة النضيرة العالية والدوحة البهيجة الأنيقة الخالية، المزينة بأنواع الزينة المنظومة بعد أنيق الورق بأفنان الدر وأفنانها، منعطفة إلى تلك المقاطع كدوائر وكل دائرة منها لها شعبة متصلة بما قبلها، وشعبة ملتحمة بما بعدها، وعانق ابتداؤها ما قبلها، فصارت كل سورة دائرة كبرى، مشتملة على دوائر الآيات الغر، البديعة النظم، العجيبة الضم، بلين تعاطف أفنانها وحسن تواصل ثمارها وأغصانها"([1]).

وإذا كان البقاعى قد جعل مقصد السورة الأعظم الوفاء بما هدى إليه الكتاب ودل عليه ميثاق العقل([2]) فإن السيوطى فى تناسق الدرر، بين هذا المعنى فقال: "وأما سورة العقود: فقد تضمنت بيان تمام الشرائع، ومكملات الدين، والوفاء بعهود الرسل وما أخذ على الأمة، وبها تمام الدين فهى سورة التكميل([3]).

---

(١) مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، الإمام البقاعى، ج١ ص ١٤٩.

(٢) ينظر: السابق، ج٢ ص ١٠٦.

(٣) تناسق الدرر فى تناسب السور، السيوطى ص ٨١ ت، عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية بيروت، ط أولى ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

والنبأ شأنه شأن القصص القرآنى كله يمتزج بمقصد السورة امتزاجا عضويا ونستطيع أن نتلمس ذلك جيدا.

فإذا كان مقصود السورة الوفاء بما هدى إليه القرآن، وفى مقدمته تمام الشرائع فإن أهم تشريع هو ما يكفل حفظ النفس الذى به صلاح المجتمع، وقد تكفل النبأ بالتمكين له من خلال أحداثه، ونستطيع أن نجد رابطا قويا بين النبأ والكثير من الآيات المبثوثة فى سورة المائدة، وقد وضح ما بين النبأ ومطلع السورة من اعتلاق، ونلمح ذلك الاعتلاق بين النبأ وقوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ المائدة: ٢.

فالآية دعوة إلى عمل البر والتعاون فيه، والنهى عن الإثم والعدوان والتعاون فيه، والتحذير من عقاب الله الشديد، وما حدث من القاتل هو قمة الاعتداء والعدوان، ولذلك باء بالإثم واستحق أن يكون من أصحاب النار، وإذا كانت الآية تنهى عن التعاون على الإثم والعدوان، فإن النبأ ينهى عن ذلك عن طريق القصة التى بينت عاقبة ذلك.

وفى قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ﴾ المائدة: ٣.

نجد العلاقة واضحة بينها وبين النبأ، وهل هناك نعمة أجل من نعمة حفظ النفس الكافلة لاستقرار المجتمع؟.

وفى قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ المائدة: ٨.

أمـــر بالعدل المجرد لله (ﷻ) العدل الذى لا يعرف مودة ولا بغضا، وفى الآية نهى عن عدم العدل بسبب ما تحمله النفوس من بغضاء، والتذكير بأن العدل هو الأقرب للتقوى، ولذلك على المسلم أن يتقى الله الذى يعلم كل أعمالـــه.

وتلتقى تلك المعانى مع النبأ من طريقين:

الطريق الأول: من خلال نموذج هذا الأخ المقتول الذى قبل قربانه لأنه من المتقين، ومنع يده أن تبسط لأخيه بالشر لأنه يخاف الله رب العالمين، فكان عادلا متسامحا لم يتسلل إلى نفسه ذرة بغض لأخيه الذى توعده بالقتل.

والطريق الثانى: ذلك النموذج الآخر الذى أبغض أخاه ولم يكن عادلا معه كيف وقد جنى على أخيه فقتله؟! فبين الله عاقبة ظلمه وعدم تقواه لربه.

فالنبأ ترجمة حقيقية لأوامر الآية ونواهيها، وتتضح المناسبة أيضا بين النبأ وبين قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ المائدة: ١١.

فالآية تذكير بنعمة جليلة، من الله بها على المسلمين وهى كف أيدى اليهود عن رسول الله (ﷺ) كما ورد فى سبب نزول الآية حيث هم بنو النضير بالفتك

برسول الله (ﷺ) إلا أن الله نجاه(١) ويتلاقى النبأ مع الآية، أتم التقاء؛ إذ إن النبأ فيه تذكير لليهود بما حدث فى الزمن الغابر من قتل الأخ لأخيه، وأن ذلك كان سببه الحسد والبغضاء الذى عمى عن الحقيقة، والهداية، وكان مآله الخسران والندم ففيه تحذير لليهود وغيرهم من اقتراف ذلك الجرم الذى حاولوه فى رسول الله (ﷺ) "وفيه تسلية أيضا للنبى (ﷺ) فالحسد طبع متأصل فى أبناء آدم فلا تتعجب من أناس يحسدون الناس على ما أتاهم الله من فضله"(٢).

وفى قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ﴾ المائدة: ١٥، المناسبة بينها وبين النبأ قوية ظاهرة.

فالنبأ كان من جملة أمور كثيرة حرفت وغيرت فقد وردت قصة ابنى آدم فى الإصحاح الرابع من سفر التكوين من أسفار التوراة الحالية، وفيها من التبديل والتحريف مافيها(٣).

فكان أمر الله (ﷻ) لنبيه بتلاوة هذا النبأ عليهم بالحق، فكان النبأ من جملة أمور بينها لهم النبى (ﷺ) وأظهرها.

---

(١) ينظر: مفاتيح الغيب للرازى، ج١١ ص ١٨٧.

(٢) دراسات فى التفسير الموضوعى للقصص القرآن، د/ أحمد جمال العمرى، ص ١٥٨،

(٣) ينظر: الأساس فى التفسير الشيخ/ سعيد حوى، ج٣ ص ١٣٦٢، دار السلام، ط السادسة ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

وفى قصة ابني آدم أيضا ذكر القصاص الذى شرعه الله فى بنى إسرائيل وقد أنكره خلفهم وادعوا عدم وجوده فأعلم الله نبيه أنه من جملة ما أخفوه(١).

فأوجه التناسب نستطيع أن نتلمسها بين النبأ وكثير من آيات سورة المائدة مما يظهر الاعتلاق بين كافة موضوعات السورة.

وهذا ما أكد عليه الشيخ محمد عبد الله دراز فقال:"إنك لتقرأ السورة الطويلة المنجمة يحسبها الجاهل أضغاثا من المعانى حشيت حشوا، وأوزاعا من المبانى جمعت عفوا، فإذا هى لو تدبرت بنية متماسكة، قد بنيت من المقاصد الكلية على أساس وأصول، وأقيم على كل أصل منها شعب وفصول، وامتد من كل شعبة منها فروع تقتصر أو تطول، فلا تزال تنتقل بين أجزائها كما تنتقل بين حجرات وأفنية فى بنيان واحد قد وضع رسمه مرة واحدة، ولا تحس بشئ من تناكر الأوضاع فى التقسيم والتنسيق، ولا بشئ من الانفصال فى الخروج من طريق إلى طريق بل ترى بين الأجناس المختلفة تمام الألفة، كما ترى بين آحاد الجنس الواحد نهاية التضامن والالتحام وكل ذلك بغير تكلف ولا استعانة بأمر من خارج المعانى أنفسها وإنما هو حسن السياقة، ولطف التمهيد من مطلع كل غرض ومقطعه، وأثنائه، يريك المنفصل متصلا والمختلف مؤتلفا"(٢).

وخير دليل على ما ذكره شيخنا ما وضح من أوجه الاعتلاق بين النبأ وسورة المائدة مطلعا ومقصدا.

---

(١) ينظر: الإعجاز البيانى فى ترتيب آيات القرآن الكريم وسوره د/ محمد أحمـــد القاســـم، ص ٤٦٤، دار المطبوعات الدولية ط ١٣٩٩هـــ/ ١٩٧٩م٠

(٢) النبأ العظيم د/ محمد عبد الله دراز، ص ١٥٥، دار الثقافة الدوحة، ط ١٤٠٥هـــ/ ١٩٨٥م.

المبحث الثالث:

علاقـــة النبأ بسورة البقر وآل عمران والنساء

هــذا الضرب من وجوه الاعتلاق ألمح له السيوطي حين ذكر العلاقة بين سورة المائدة وسورة البقرة حيث قال: "فى البقرة ذكر القصاص فى القتلى،وهنا ذكر أول من سن القتل"(١).

ويوسع صاحب الظلال دائرة التناسب فيبين السلك الناظم بين هذه السور حيث ذكر فى مقدمة تفسيره لسورة المائدة: "ومن ثم نجد فى هذه السورة ــ كما وجدنا فى السور الثلاث الطوال قبلها ــ موضوعات شتى، الرابط بينها جميعا هو هذا الهدف الذى جاء القرآن كله لتحقيقه: إنشاء أمة وإقامة دولة، وتنظيم مجتمع، على أساس من عقيدة خاصة، وتصور معين، وبناء جديد، الأصل فيه إفراد الله ــ سبحانه ــ بالألوهية والربوبية والقوامة والسلطان، وتلقى منهج الحياة وشريعتها ونظامها وموازينها وقيمها منه وحده بلا شريك..."(٢).

فالغرض الجامع بين السور الأربع هو إقامة المجتمع وتنظيمه فى صورته المثالية فسورة البقرة عنيت أساسا بجوانب التشريع الإسلامى، ومعالجة النظم والقوانين التى يحتاج إليها المسلمون فى حياتهم الاجتماعية، وسورة آل عمران هدفت إلى ترسيخ العقيدة وتحديد الشريعة، خاصة فيما يتعلق بالمغازى والجهاد

---

(١) قطف الأزهار فى كشف الأسرار، السيوطى ج٢ ص ٧٨١، ت٠ د/ أحمــد حمــادى، إصدار وزارة الأوقاف القطرية،٠ بدون.

(٢) فى ظلال القرآن، ج٢ ص ٨٢٥.

وأمور الربا، وسورة النساء تنظيم تشريعى خاصة فيما يتعلق بالأسرة وحقوق النساء([1]).

ويأتى النبأ فى سورة المائدة ليتناغم مع هذا الجو التشريعى العام الذى حفلت به السور الثلاث، إذ هو أهم شئ فى إقامة المجتمع الآمن.

ونبدأ بسورة البقرة: ونستطيع أن نرد النبأ إلى أكثر من آية فى سورة البقرة إلا أن أوضح آية تبين وجه الاعتلاق هى قولـــه تعالى فى سورة البقرة: ﴿ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ البقرة: ٢٧.

وفى نبأ ابنى آدم نقض لعهد الله، وقطع الأرحام، وأعظم إفساد فى الأرض، وفى الآية خسران، وفى نبأ ابنى آدم خسران.

وفى البقرة أيضا خوف الملائكة من إفساد ابن آدم وأعظم مظاهره سفك الدماء: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ البقرة: ٣٠.

ويأتى النبأ ليبين عاقبة هذا السفك وخطورته منفرا من وقوعه.

وأيضا تركز السورة على عدم سفك الدم: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾ البقرة: ٨٤.

---

(١) ينظر: دراسات فى التفسير الموضوعى للقصص القرآن، د/ أحمد العمرى ص ٧١.

حتى يأتى الحكم الفصل القاضى بوجوب القصاص: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ البقرة: ١٧٨ – ١٧٩.

فقد شغلت سورة البقرة بإقامة مجتمع السلم الذى يعرف الحقوق والواجبات وفى مقدمة هذه الحقوق، حق الإنسان فى الحياة فكانت التشريعات اللازمة لذلك، وبذلك يتضح ما بينها وبين النبأ من ارتباط وتآخ.

وسورة آل عمران مقصودها التوحيد(١)، وفى النبأ نموذج ملائكى مشرق، وحد الله (ﷻ) فى ألوهيته وربوبيته عندما أعلن خوفه من الله رب العالمين.

كما أن السورة شغلت أيضا ببعض أحكام التشريع فتلاقت مع النبأ الذى مهد لتشريع القصاص.

وفى السورة أيضا بيان لما يجب أن يحرص عليه المسلم وهو رضا الله والفوز بالجنة، فقال تعالى: ﴿ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ وَإِنَّمَا تُوَفَّوۡنَ أُجُورَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَۗ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ﴾ آل عمران: ١٨٥.

(١) مصاعد النظر، ج٢ ص ٦٧.

وهذا ما وعاه ابن آدم المقتول جيدا فكان حرصه ليس على حياته، ولا على دنياه، وإنما كان حرصه على عدم غضب الله عليه والفوز برضاه ليكون من أصحاب الجنان لا من أصحاب النيران.

ولا شك أن ما فعله ابن آدم المقتول من مقابلة العدوان بالسماحة والنصح وعدم بسط اليد للاقتتال يحتاج إلى إيمان عميق وصبر وجلد ومصابرة وهو عين قول الله (ﷻ) فى نهاية السورة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ آل عمران: ٢٠٠٠.

وسورة النساء شغلت من أولها بتحقيق معنى التقوى: ﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ النساء: ٩٠.

﴿ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ النساء: ٧٧٠.

﴿ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ النساء: ١٢٩٠.

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴾ النساء: ١٣١٠.

يقول الشيخ سعيد حوى: "فإذا كانت سورة النساء قد فصلت فيما هو من التقوى فسورة المائدة تفصل فيما ليس من التقوى لتعمق عندنا قضية التقوى"(١).

---

(١) الأساس فى التفسير، ج٣ ص ١٢٩٧.

وقد أكد النبأ أن شرط قبول الأعمال هو تقوى الله (ﷻ) تلك التقوى التى عاش ابن آدم فيها مطمئنا فلم يخف إلا من الله (ﷻ)، كما أن سورة النساء اشتملت على تشريع هو أقرب رحما لموضوع النبأ وذلك فى قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ النساء: ٩٢.

وبعدها تحذير شديد من القتل العمد: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ النساء: ٩٣٠.

وهـذا الحكم الشديد على القاتل يبين لماذا كان حرص المقتول على عدم قتل أخيه وفى السورة أيضا تشنيع على اليهود الذين نقضوا الميثاق وكفروا بآيات الله وقتلوا الأنبياء قال تعالى: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ النساء: ١٥٥٠.

ويتلاقـــى النموذج الشيطاني فى النبأ نموذج الأخ القاتل الذى نقض الميثاق وسفك الدماء ولم يؤثر فى قلبه ترغيب ولا ترهيب ــ يتلاقى ــ مع أفعال هؤلاء اليهود.

وبذلك يتضح مدى التناسب بين النبأ وسور البقرة وآل عمران والنساء، فكل آية فى القرآن الكريم لم يراع فيها الآية التى تليها ولا السورة التى درجت فيها، بل يراعى فيها التعبير القرآنى كله، يقول الفخر الرازى:

"إن القرآن كالسورة الواحدة لاتصال بعضه ببعض بل هو كالآية الواحدة "(١).

(١) ينظر: التفسير الكبير، ج٣٠ ص ١٠٤.

المبحث الرابع:

علاقـــة النبأ بسورة الفاتحـــة

الفاتحة هى أم الكتاب وأم القرآن وماذاك إلا لاشتمالها على كل معانى القرآن ومقاصده، ففى هذه السورة "من كليات العقيدة الإسلامية وكليات التصور الإسلامى، وكليات المشاعر والتوجهات ما يشير إلى طرف من حكمة اختيارها للتكرار فى كل ركعة وحكمة بطلان كل صلاة لا تذكر بها"(١).

ولذلك فمن حق التدبر فى النبأ أن نبين مدى التناسب بينه وبين الفاتحة أم القرآن "فالمعانى المبثوثة فى آيات القرآن الكريم من مفتتح سورة "البقرة" سنام القرآن الكريم إلى مختتم آيات سورة الناس هى تفصيل لما أجمل من المعانى فى سورة الفاتحة "أم الكتاب" وكل معنى قرآنـــى هو منثـــول من معنى من معانى سورة الفاتحة"(٢).

فالفاتحة بمثابة "ديباجة القرآن، ومرآة القرآن فالناظر المتأمل فى هذه السورة لايفوته أن يطلع من خلالها على جميع مطالب القرآن، أو يستحضر فى ذهنه رؤوس المعانى التى جاء بها القرآن"(٣).

وها نحن نسوق الدليل على ما قاله أهل العلم من اشتمال الفاتحة على كل مقاصد القرآن من خلال بيان العلاقة بين النبأ وسورة الفاتحة.

---

(١) فى ظلال القرآن، ج١ ص ٢١.

(٢) سبل الاستنباط من القرآن والسنة، د/ محمود توفيق، ص ٥٥١.

(٣) البرهان فى نظام القرآن د/ محمد عناية الله سبحانى، ص ٨٠، دار الكتـــب، ط أولـــى ١٤١٤هـــ /١٩٩٤م.

فالفاتحة تحدثت عن صراطين: صراط الذين أنعم الله عليهم، وهذا هو صراط الطائعين فى كل عصر ومصر ومنهم ابن آدم الذى تقبل الله قربانه لأنه من المتقين، ولم يبسط يده لأخيه بالقتل لأنه يخاف الله رب العالمين، فحق أن يكون من أصحاب الصراط المستقيم الذين أنعم الله عليهم بنعمة الهداية، من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

والصراط الآخر: هو صراط المغضوب عليهم والضالين وهو صراط العصاة والجبارين فى كل عصر ومصر ومنهم ابن آدم الذى تجرأ على الله (ﷻ) فاستباح ما حرمه الله وسفك الدماء وأى دم سفكـــه؟ !.

لقد سفك دماء أخيه فحق له أن يكون من المغضوب عليهم والضالين البعيدين عن سبل الهداية، وهذا الطريق نهايته واحدة الخسران والندم وملازمة النيران.

ونستطيع أن نبين وجها آخر من وجوه الاعتلاق بين النبأ وسورة الفاتحة من خلال ماذكره العالم الربانى الدكتور/ محمد عبد الله دراز من بيان العلاقة بين الفاتحة والقرآن الكريم كله؛ حيث قال: "وهكذا حين تنظر إلى القرآن فى جملته نراه يتمثل أمامنا فى صورة مناجاة ثنائية، الفاتحة أحد طرفيها وسائر القرآن طرفها الآخر، الفاتحة سؤال وباقى القرآن جواب، الفاتحة هى طلب الهدى والباقى هو الهدى المطلوب"(١).

وهذا الكلام حق له أن يكتب بالتبر لا بالحبر، فالفاتحة سؤال الهداية من الله (ﷻ) والقرآن الكريم بعدها جواب من الله، ومن جملة هداية الله (ﷻ) لنا هذا

---

(١) نظرات فى فاتحة الكتاب الحكيم، د/محمد عبد الله دراز، مجلة المجلة، ص١٤، عـــدد ٧ ذو الحجة ١٣٧٦هـــ/ ١٩٥٧ م.

النبأ الذى يهدى إلى استقرار المجتمع ومحاصرة أعظم المفاسد الكفيلة بالقضاء عليه وهى جريمة قتل النفس.

وهكذا لو وضعت الفاتحة بجانب أى سورة أو آية لناسبتها بوجه من الوجوه إذ ما من سورة إلا وفيها تفصيل لبعض ما أجملته معانيها وهذا من خصائص الفاتحة(١).

وبذلك يتضح إعجاز القرآن الكريم من ناحية تناسبه وتلاحمه وتلاقيه فهو كل متصل كالحلقة المفرغة لايدرى أين طرفاها، وإذا كان الرافعى (رحمه الله) قد ذكر أن القرآن من شدة ترابطه وإحكامه "كأنه صيغ جملة واحدة فى نفس واحد"(٢).

فقد أعطينا دليلاً قوياً على هذه الجملة السخية العطاء القوية الدلالة على كمال التناسب وقوة الاعتلاق، بين مقطع فى سورة المائدة، وهو نبأ ابنى آدم، وبين كافة مستويات التلاقى على مستوى السورة، والسور، وفاتحة الكتاب وسبحان من هذا كلامـــه.

والله أعلـم

(١) جواهر البيان فى تناسب سور القرآن، لأبى الفضل عبد الله الغمارى الحسنى، ص ٢٣، مكتبة القاهرة، بدون.

(٢) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مـــصطفى صـــادق الرافعـــى، ص ٢٥٦، دار الكتـــاب العربى، بيروت، ط التاسعة ١٣٩٣هـــ/ ١٩٧٣م.

المبحث الخامس:

علاقـــة النبأ بالقرآن المدنـــــى

" النبأ فى سياقه النزولـــى "

قبل أن نلج فى بيان العلاقة بين النبأ والقرآن المدنى يجدر بنا الإشارة إلى بيان معرفة ضابط المكى والمدنى وفائدة نزول القرآن الكريم منجما، ومدى أهمية ملاحظة السياق النزولى للآيات وسمات القرآن المدنى ومدى تلاقيها مع النبأ.

وللعلماء كلام كثير فى ضابط القرآن المكى والمدنى خلاصته أن التفرقة بين المكى والمدنى ليس هو مكان النزول، إنما هو كونه بعد الهجرة أو قبلها فإن كان قبلها فهو مكى، وإن كان بعدها فهو مدنى ولو نزل بمكة(١).

لم يأت القرآن مرتبا على حسب ترتيب النزول، فقد كان ترتيبه على النحو الموجود فى المصحف بتوقيف من الله(٢).

وإنما لم يرتب القرآن على حسب ترتيب النزول لأن القرآن الكريم "صار دستور الأمة ترجع إليه فى عقائدها واستخراج الأحكام منه، ولا شك أن هذا

---

(١) ينظر: الاتقان فى علوم القرآن، السيوطى ج١ ص ٣١٣، مناهل العرفـــان فـــى علـــوم القرآن، الشيخ / محمد عبد العظيم الزرقانى، ج١ ص ١٦٢ ت، فؤاد أحمد زمرلى، دار الكتاب العربى، ط أولى ١٤١٥هـــ / ١٩٩٥م، وزهرة التفاسير للشيخ/ محمد أبو زهرة ص ٧٥، دار الفكر العربى، بدون.

(٢) ينظر: الإتقان فى علوم القرآن السيوطى ج١ ص ٥٧٠.

يستدعى ترتيبا غير ترتيب النزول، حيث روعى فيه حال المدعوين، والداعي (ﷺ) والقضية التى نزل بشأنها القرآن"(١).

فالقرآن الكريم فى ترتيب نزوله منهج لتأسيس دعوة، وهو فى ترتيبه المصحفى أسلوب حياة وبناء حضارة،ودستور للعالم كله محيط بكل صغيرة وكبيرة من حاجاته ومطالبه أحكم ترتيبه من هذه الوجهة ليكون هداية للمؤمنين(٢).

ولو جمع القرآن ورتب على حسب ترتيب النزول "لفهم بعض الناس أن آياته خاصة بحوادثها أو أنه حلول وقتية للمشكلات التى كانت على عهد رسول الله (ﷺ) فحسب والله تعالى يريد كتابه عاما خالدا لا يختص بعصر دون عصر، ولا بقوم دون قوم لذلك اقتضت الحكمة أن يرتب ترتيبا يحقق هذا العموم وهذا الخلود ويبتعد عن الترتيب الزمنى الذى نزل به"(٣).

ويعلل مالك بن نبى لنزول القرآن الكريم منجما فيقول: "ولكنا برجوعنا خلال الزمن نستطيع أن نحكم بأهمية هذا التنجيم الفذ للوحى أهمية قصوى لنجاح الدعوة، إذ بماذا كنا نفسر من الوجهات التاريخية والاجتماعية والأدبية قرآنا يهبط كأنما هو برق خاطف فى ظلمات الجاهلية؟.

وإننا ببحثنا مسألة تجزئة الوحى فى ضوء هذه النظرات، نستطيع أن ندرك أولا قيمته التربوية، فتلك فى الواقع هى الطريقة التربوية الوحيدة الممكنة فى

---

(١) تفسير الأجزاء العشرة الأولى، الشيخ محمود شلتوت ص ٣٧٤٠، دار القلم، ط الرابعة، ١٩٩٦م.

(٢) مقدمة تحقيق كتاب تناسق الدرر فى تناسب السور، السيوطى ص ١٠.

(٣) المجتمع المثالى كما تنظمه سورة النساء، أ/ محمد المدنى، ص٢ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

حقبة تتسم بميلاد دين وبزوغ حضارة، وسيهدى الوحى خلال ثلاثة وعشرين عاما سير النبى وأصحابه خطوة خطوة نحو هذا الهدف البعيد، وهو يحوطهم فى كل لحظة بالعناية الإلهية المناسبة، وهو يعزز جهودهم العظيمة ويدفع أرواحهم وإرادتهم نحو هدف الملحمة الفريدة فى التاريخ.... كيف كان القرآن يؤدى دوره حيال طبيعة الإنســـان التى جاء يصوغها فى ذلك العصر لو أنه سبق بنزوله أحداث حنين وأحد؟.. وماذا كان يكون لو أنه لم يأت لكل ألم بعزائه العاجل ولو أنه لم ينزل لكل تضحية جزاءها،ولكل هزيمة أملها، ولكل نصر درسه فى الاحتشام، ولكل عقبة إشارة إلى ماتقتضيه من جهد، ولكل خطر أدبى أو مادى روح التشجيع اللازم لمواجهته؟.

فالحركة التاريخية والاجتماعية والروحية التى نهض بأعبائها الإسلام لا سر لها إلا فى هذا التنجيم، والقرآن يبرز هذه الخاصة الخفية وهو يخاطب النبى (ﷺ) بقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴾ الفرقان: ٣٢.

فنزول القرآن على نجوم،وقد كان فى اعتبار الجاهليين نقصا شاذا، يتجلى لنا بمراجعتنا الزمن والأحداث شرطا أساسيا ضروريا لانتشار الدعوة المحمدية(١)، فهذا عن فائدة نزول القرآن الكريم منجما(٢).

---

(١) الظاهرة القرآنية مالك بن نبى، ص ١٨١، دار الفكر المعاصـــر، بيـــروت ط الرابعـــة ١٤٢٠هـــ/ ٢٠٠٠م.

(٢) ينظر فى ذلك أيضا: نظرات فى البعد النزولى للقرآن الكـــريم، د/ عـــدنان زرزور ص ٢٣٢ وما بعدها، وتاريخ نزول القرآن الكـــريم، د/ محمـــد رأفـــت ســـعيد ص ٣٩ ط ٢٠٠١م.

أما عن ملاحظة السياق النزولي فى تدبر الآيات فإنه من الأهمية بمكان إذ من خلاله يتم التبصر بالمراحل التاريخية التى سار فيها التشريع والإطلاع على الطريقة الحكيمة المثلى التى أخذ الله بها فيما سن لهم من أحكام، كذلك فإنا نقف على مراحل الدعوة الإسلامية ونطلع على تكامل بنية الفكر والتصور الإسلامي، وفائدة أخرى لا تقل أهمية عما سبق هى أن هذه المعرفة تبصرنا بمعنى الآية القرآنية وتحجزنا عن الخطأ فى تفسيرها(١).

"فتصور الظرفين النزولى والمكانى اللذين أنزلت فيهما الآيات الموضوعة للتدبر والدراسة يقدم للتدبر نفعا جليلا ويهديه إلى مفاهيم أكثر دقه وأقرب إلى المراد"(٢).

وقد كان للقرآن المكى خصائصه وسماته، وكذلك القرآن المدنى، إذ إن معظم الآيات المدنية تدور حول مسائل التشريع والأحكام وعلاقة الفرد بالمجتمع والمجتمع الإسلامى بسائر المجتمعات الإنسانية والأمم الأخرى، وفى القرآن المدنى مخاطبة لليهود والأنصار فقد اهتمت السور المدنية بهم فذكرتهم بماضيهم وتحريفهم كلام الله وعدوانهم وقتلهم الأنبياء، وحبهم للمادة وحرصهم على الحياة، كما وصفت الآيات المدنية اليهود أيام موسى وبعد موسى وأيام

(١) التعبير الفنى فى القرآن الكريم د/ بكرى شيخ أمين، ص ٤٢ ومابعدها، دار العلم للملايين، ط أولى ١٩٩٤م، وينظر: فى ظلال القرآن، ج٣ ص ١٤٢٩.

(٢) قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله (ﷻ)، د/ عبد الرحمن حنبكة، ص ٥٤، دار القلم، ط الثانية ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

عيسى وأيام محمد (ﷺ) ووضحت أن طبيعتهم واحدة وأن صفاتهم المرذولة توارثها الأبناء عن الآباء(١).

وإذا كان ثم تمايز بين المكي والمدني فى الخصائص والموضوعات فإن هناك تمايزا أيضا بين القصة القرآنية المكية ونظيرتها المدنية إذ "يختلف الغرض من تناول القصة وطريقة توظيفها لتحقيق الغاية فى القرآن المكى عنه فى المدني، حيث غلب على السور المكية تناول أمور العقيدة، فكان قصص القرآن فيها منصبا على الأمم التى كذبت أنبياءها ورسلها فى شأن التوحـــيد، وعبادة الله وحده وتـــرك عـــبادة شركاء أو أولـــياء من دونـــه أما السور المدنية فيغلب على الخبر والقصة فيها القصر والتناسب الموضوعى مع أهداف التشريع وأموره التى غلبت على القرآن المدنى(٢).

وسورة المائدة سورة مدنية بل هى من أواخر ما نزل من السور المدنية فقد روى عن أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) أنها قالت: إن المائدة من آخر ما أنزل الله فما وجدتم فيها من حلال فأحلوه، وما وجدتم من حرام فحرموه(٣).

والسورة كلها مدنية فالنبأ من القرآن المدنى وهو مناسب أتم المناسبة لسياقه النزولى إذ إن نهاية نزوله فى تلك الفترة أواخر العهد المدنى بعد أن

---

(١) ينظر: علوم القرآن د/ عبد الله شحاته، ص ٥٦ وما بعدها، دار غريب للطباعة والنشر بدون، والتعبير الفنى فى القرآن الكريم، د/ بكرى شيخ أمـــين، ص ٤٦، ومـــا بعـــدها وقواعد التدبر الأمـــــثل، د/ عبد الرحمن حنبكة ص ٥٦.

(٢) بدائع الإضمار القصصى فى القرآن الكريم، د/ كاظم الظواهرى ص ٣٣.

(٣) الإتقان، ج١ ص ٣٧ والحديث فى المستدرك على الصحيحين للحـــاكم، ج١ ص ٢٥٥، ت٠أ/مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت٠ بدون، وينظر:النظم الفنـــى فى القرآن الكريم، الشيخ/ عبد المتعال الصعيدى، ص ٨٩ مكتبة الآداب، بدون.

أصبح للإسلام دولة، ومجتمع مستقر فذلك يناسبه النبأ الذى يضع لبنة عظيمة فى بناء صرح المجتمع المسلم فى المدينة المنورة، ومعلوم أن التشريع الجنائى فى الإسلام لم يتم إلا فى أواخر العهد المدنى بعد أن استقرت العقيدة فى النفوس وأصبح المسلم جاهزا لإقامة تكاليف الشريعة، التى يحتاجها المجتمع.

كما أن النبأ وقد خوطب به اليهود أولا مناسب لأحوال الطوائف التى كانت تعيش بالمدينة، فقد كان اليهود أحد الفئات التى كانت تقطن المدينة وقد حفلت سورة المائدة بالحديث عن أهل الكتاب ومنها:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ هَمَّ قَوۡمٌ أَن يَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ فَكَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ المائدة: ١١.

﴿ وَلَقَدۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَبَعَثۡنَا مِنۡهُمُ ٱثۡنَيۡ عَشَرَ نَقِيبٗاۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمۡۖ لَئِنۡ أَقَمۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيۡتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرۡتُمُوهُمۡ وَأَقۡرَضۡتُمُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ فَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ المائدة: ١٢.

﴿ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۚ قُلۡ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ بَلۡ أَنتُم بَشَرٞ مِّمَّنۡ خَلَقَۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ المائدة: ١٥.

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ المائدة: ١٨.

﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ المائدة: ١٩.

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ المائدة: ٢٠.

﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ ۛ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴾ المائدة: ٣٢.

وكثير من الآيات التى تحدثت عن بنى إسرائيل من أكلهم السحت، وتعطيلهم حكم التوراة التى أنزلها الله لهم هدى ونور، ونهى المؤمنين عن موالاتهم ومسارعتهم فى الإثم والعدوان، وتجرؤ اليهود على الله، فالحديث عن أهل الكتاب حاضر بقوة فى سورة المائدة، وكان تلاوة النبأ عليهم بادئ ذى بدء حتى تسل سخيمة صدورهم، وتنقى من الحسد والكراهية الذى أودى بالقاتل إلى المهالك وأسلمه إلى الخسران والندم فى الدنيا وعذاب الله فى الآخرة، فلعل ذلك يكون رادعا لهم وشافيا لصدورهم.

وبذلك يتضح مدى مناسبة النبأ لسياقه النزولى وكما كان بريق نوره يضئ ظلمات المدينة ويربى النفوس فيها فإن نوره قد هيأه الله فى موضعه من سورة المائدة ليكون بريقا ساطعا على مرور الأزمان واختلاف العصور والأمصار يهتدى الناس بهديه ويستضيئون بنوره فينعمون بأعظم النعم ألا وهى نعمة الأمن والأمان الذى يقصد إليها النبأ.

فالنبأ فى سياقه الترتيلى فى أتم المناسبة وفى سياقه النزولى كذلك، فالقرآن الكريم على عمومه: "حاز أعلى البلاغة فى إنزاله مطابقا لما تقتضيه الأحوال بحسب الأزمان ثم رتبه على أعلى وجوه البلاغة بحسب ما تقتضيه المفاهيم من المقال كما تشاهده من هذا الكتاب البديع البعيد المنال"(١).

فمن أى جهـــة نظرنا للنبأ وجدنا وجوه الاعتلاق حاضرة ظاهرة، وسبحان من هذا كلامـــه.

والله أعلم

(١) نظم الدرر، ج٢ ص ٢٠٤.

الفصل الثاني

في رحاب الدراسة التحليلية للنبأ

التمهيد ويتناول:

أولا: عناصر قصة ابنى آدم

ثانيا: المعنى العام للنبا

أولاً: عناصر قصة ابنى آدم

هذه قصة من قصص القرآن العظيم جاءت لتؤصل أصلا من أصول هذا الدين الحنيف ألا وهو حرمة الدماء.

وقد جاءت أحداث هذه القصة فى كتب المفسرين على النحو التالى:

فقد كان لا يولد لآدم (عليه السلام) مولود إلا ولد معه جارية، فكان يزوج غلام هذا البطن جارية هذا البطن الآخر، ويزوج جارية هذا البطن غلام هذا البطن الآخر، حتى ولد له ابنان يقال لهما: هابيل وقابيل، وكان قابيل صاحب زرع، وهابيل صاحب غنم، وكانت أخت قابيل أجمل من أخت هابيل، وأصر أن يتزوج من أخته، فقربا قربانا إلى الله (عز وجل) أيهما أحق بالجارية فقرب هابيل جذعة سمينة وقرب قابيل حزمة سنبل فوجد فيها سنبلة عظيمة ففركها وأكلها فنزلت النار، فأكلت قربان هابيل، وتركت قربان قابيل، فغضب وتوعد أخاه بالقتل ولم يستمع لنصحه فقتله،وكان نهاية القصة الندم والخسران لهذا الأخ الذى كان تعليمه على يد الغراب."(١)

---

(١) ينظر: جامع البيان فى تفسير القرآن، الطبرى، ج٥ ص ١٢٠، دار المعرفة بيروت، لبنان، ط الرابعة ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م، والجامع لأحكام القرآن القرطبى، ص٢١٣٠ دار الريان للتراث، بدون، وتفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ج٣ ص ٦١٠ ت٠أ/ هانى الحاج، المكتبة التوفيقية، بدون.

هذا ما جاء فى كتب التفسير غير أن السياق القرآنى لم يحدد لهذه الأحداث زمانا ولامكانا ولا أسماء، ولذلك فمن الأولى الاقتصار على أحداث القصة كما وردت مجملة بدون هذه التفصيلات فالقصة تؤدى الغرض من عرضها على هذا النحو، ولو كان فى هذه التفصيلات أى فائدة لذكرت، ونستطيع أن نحدد عناصر القصة فى العناصر الآتيـــة:

١- الحادثة:

وهى الموضوع الذى تحدثت عنه القصة وهو هنا حادثة القتل، وليس أى قتل إنه قتل أخ لأخيه، ولا شك أن حادثة مثل هذه تبعث الشوق فى النفس، لمعرفة مضمونها ونهايتها.

٢- الشخصيات:

الشخصيات هى المحركة للأحداث، ويتم رسمها بطريقتين: بطريقة مباشرة بالحديث عن صفات الشخص وخصائصه.

وبطرقة غير مباشرة من خلال الحدث بإظهار أفعال الشخص الذى يمكن معرفة شخصيته من خلالها.

وقصة ابنى آدم اشتملت على شخصيتين تم معرفة صفاتهما من خلال إظهار أفعالهما مما اتضح أننا أمام نموذجين لشخصيتين متناقضتين الأولى: تمثل طبيعة الشر والعدوان "قابيل"، والأخرى: تمثل طبيعة الطيبة والوداعة "هابيل"، وهو النموذج المرغب فيه فى القصة.

٣- الحوار:

وهو محرك للأحداث، ومصور للشخصيات ومبلغ إلى الصراع، ومؤد إلى الهدف ومظهر للمغزى، والحوار فى القصة القرآنية يأتى على صور وأشكال، فقد يكون على صورة حوار ذاتى بين الشخص وعقله أو قلبه، كما فى قصة

إبراهيم (عليه السلام)، وهو ينظر إلى الكوكب والقمر والشمس، ويفتن عن الآلهة، وقد يكون بين شخصين كما فى حوار إبراهيم مع قومه أو يوسف مع إخوتـــــه.

وبالرغم من الإيجاز الشديد فى النبأ إلا أنه احتوى نوعى الحوار، ففيه حوار الأخ مع أخيه ويلاحظ فيه أن القاتل لم يتكلم إلا بجملة واحدة فى هذا الحوار وهى: "قال لأقتلنك" فقد كان كثير الفعل قليل الكلام.

ولـــم يملك "هابيل" تجاه هذا التهديد إلا بلاغة اللسان ليسل سخيمة صدره، فتتابعت جمله وأقواله.

والنوع الآخر من الحوار وهو الحوار مع النفس والذات، تمثل فيما تحدث به "قابيل" مع نفسه بعد قتل أخيه وعجزه عن دفنه، وتعليم الغراب له.

٤ – الهدف:

القصة فى القرآن الكريم لا تأتى للتسلية وإنما لهدف يقصد إليه، وهدف القصة هنا خلق تأثير نفسى ضد الجريمة والمجرم وتعاطف روحى مع الضحية، مما له عظيم الأثر على السلوك الإنسانى العام، وكذلك على السلم الأهلى واستقرار المجتمعات ومن أجل التركيز على هذا الهدف، وردت القصة دون الدخول فى التفاصيل كالأسماء والأماكن والتواريخ، وكيفية التقبل، والقتل حتى لا ينشغل المتلقى عن الدروس المستفادة والعبر المرادة"([1]).

---

(١) اعتمدت فى إبراز هذه العناصر على التعبير الفنى فى القرآن الكريم، د/ بكـــرى شـــيخ أمين، ص ٢٢٩ ومابعدها، والإعجاز القصصى فى القرآن الكريم د/سعيد مطاوع، ص ٢٢٤ ومابعدها، وخصائص التعبير القرآنى وسماته البلاغية، د/ عبد العظيم المطعنـــى، ج١ س ٣٣٥ ومابعدها، مكتبة وهبة، ط أولى ١٤١٣هـــ / ١٩٩٢م.

ثانياً: المعنى العام للنبا

يأمر الله (ﷻ) نبيه (ﷺ) أن يتلو هذا النبأ الذى يحتاجه المجتمع المسلم الذى يبحث عن الأمن والأمان.

ونستنطق الآيات فنجد أن ولدين لآدم (عليه السلام) قد قرب كل واحد منهما قربانا إلى الله (ﷻ) فتقبل الله قربان المتقى منهما، فغضب الآخر وتوعد أخاه بالقتل، فيخبره أخوه أن القبول وعدم القبول مرده إلى تقوى الله (ﷻ)، وأمام التهديد بالقتل نرى نفسا سمحة تأخذ العهد على نفسها أنها لن تقابل الإساءة بالإساءة والبسط بالبسط لأنها نفس تخاف الله رب العالمين، فليتحمل القاتل إثمه وإثم أخيه ليكون فى جهنم بئس مثوى الظالمين، ومع كل هذا الترهيب عقد القاتل النية ولم يصلح الطوية وامتدت يد الغدر إلى أخيه بالقتل بعد أن أعماه الحقد والحسد.

ولما كانت تلك أول حادثة قتل فى تاريخ البشرية لم يعرف القاتل كيف يدفن أخاه فأرسل الله له الغراب ليعلمه كيف يكون الدفن، فتصيبه الحسرة ويبكيه الندم.

هذا هو معني الآيات لكن الآيات نفسها شئ آخر.

فى رحاب الدراسة التحليلية

يبدأ النبأ بهذا الأمـــر الإلـهى لرسوله (ﷺ):-

﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ ﴾

وقد جاءت "الواو" لتعطف نبأ على نبأ(١)، والفعل "اتل" فعل أمر على حقيقته والخطاب للنبى (ﷺ) وفعل "التلاوة" يطرد مجيئه فى القرآن الكريم وللدلالة على قراءة القرآن الكريم خاصة، وذلك ناظر لمادة الكلمة "تلا" فأصل "التلاوة" فى اللغة مأخوذ من اتباع الشئ الشئ، يقال: تلاه إذا تبعه، ومن ثم تكون التلاوة فى الكلمات الكثيرة حيث يتبع بعضها بعضا، وبذلك يتحقق معنى التلو وهذا لا يكون فى الكلمة الواحدة، فتقول: قرأت الكلمة، ولاتقول: تلوتها؛ لأنه لايصح فيها التلو، فاستعمال مادة "تلا" مع القرآن الكريم خاصة لما فيه من تتابع القراءة كما أنها تلقى على عملية القراءة ذاتها مزيدا من الاعتناء والإجلال والاحترام والتعظيم(٢).

ويلمحُ فى اللفظ أيضا معنى الاتباع، أى اتباع ما يتلى حتى خصها الراغب بهذا المعنى فقال: " والتلاوة تختص باتباع كتب الله المنزلة، تارة بالقراءة،

---

(١) التحرير والتنوير ج٦ ص ١٦٨.

(٢) ينظر: لسان العرب، " تلو" والفروق فى اللغة لأبى هلال العسكرى، ص ٥٤٠ ت، لجنة إحياء التراث العربى، منشورات دار الآفاق الجديدة، ط الخامسة ١٤٠٣هـــ /١٩٨٣م، وتاج العروس من جواهر القاموس، لمحمد مرتضى الزبيدى، ج٣ ص ٥٢٠ منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، بدون، والفروق اللغوية وأثرها فى تفسير القرآن الكـــريم، د/ محمد الشايع، ص ٢٧٩٠ مكتبة العبيكان، ط أولى ١٤١٤هـــ/١٩٩٣م.

وتارة بالارتســـام لما فيها من أمر ونهى وترغيب وترهيب أو ما يتوهم فيه ذلك(١).

ويرى الشيخ محمد رشيد رضا أن قراءة القرآن إنما سميت تلاوة لأنه مثانى كلما قرئ منه شئ يتبع بقراءة غيره أو بإعادته، أو لأن شأنه أن يقرأ ليتبع بالاهتداء والعمل به(٢)، فلفظ "اتل" أليق بمقام القرآن الكريم قراءة واتباعا، وهكذا يضعنا هذا الفعل فى بؤرة النشاط العقلى لما فيه من تفخيم وتعظيم وإجلال لما سيبدأ النبى (ﷺ) بذكره وتلاوتـــه.

ولذلك ورد هذا الفعل فى كل نبأ أريد من النبى (ﷺ) أن يخبر به، قال تعالـــى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ الأعراف: ١٧٥.

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴾ يونس: ٧١.

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ الشعراء: ٦٩.

وإذا أريد تلاوة الوحى عامة جئ على هذا النحـــــــو:

---

(١) المفردات فى غريب القرآن، الراغب الأصفهانى، ص ٨٢٠ ت، أ/وائل عبد الـــرحمن، المكتبة التوفيقية القاهرة.

(٢) ينظر: تفسير المنار، الشيخ محمد رشيد رضا،ج٣ ص٢٨٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣م.

﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴾ الكهف: ٢٧.

﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ العنكبوت: ٤٥.

وبإستقراء تلك الآيات نلحظ أن الجار والمجرور "عليهم" ملازم عند مجئ "النبأ"، وإذا كانت التلاوة عامة لكل الوحى لم يأت "عليهم".

وذلك مناسب أتم المناسبة، لأن النبأ لما كان خاصا بحدث معين وسيق لغرض خاص،ولمخاطبين خاصين ابتداءً ناسب مجئ"عليهم"لأن لهم مزيد اختصاص بهذا النبأ.

ومجئ الجار "على" وهو يفيد الاستعلاء والإشراف والارتفاع(١) يخلع على التلاوة معانى التشريف والتعظيم، وقوة السلطان، فهى تلاوة شريفة ذات أسر وأخذ بمجامع القلوب والألباب.

ويأتى تقديم الجار والمجرور"عليهم" ليكسب المعنى ثراء وجمالا، فإن تلك الزحزحة تضفى حركة على الأسلوب فيرمى بكثير من اللطائف والبدائع، ولم لا والتقديم "باب كثير الفوائد، جم المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية، لايزال يفتر لك عن بديعة ويفضى بك إلى لطيفة"(٢).

---

(١) ينظر: الجنى الدانى فى حروف المعاني الحســـــن بن قاسم المرادى، ص٤٧١ ومـــا بعدها ت، د/فخرالدين قباوة، وأ/ محمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط أولى ١٤١٣هـــ/ ١٩٩٢م.

(٢) دلائل الإعجاز، ص ١٠٦.

والعرب لها سنة متبعة فى التقديم وضحها سيبويه فقال: "وكأنهم ــ أى العرب ــ إنما يقدمون الذى بيانه أهم لهم، وهم ببيانه أعنى، وإن كانا جميعا يهمانهم ويعنيانهم"(١).

ونستطيع أن نقول ذلك فى أى تقديم سواء أفاد الاختصاص أم لم يفد ولذلك وجدنا الإمام عبد القاهر لا يقنع بذلك فيقول: "وقد وقع فى ظنون الناس أنه يكفى أن يقال: إنه قدم للعناية ولأن ذكره أهم، من غير أن يذكر من أين كانت تلك العناية ولم كان أهم"(٢).

وكلام الإمام يصيب المحز، ويكشف عن ألمعية وقادة، وسبيلنا فى معرفة تلكم العناية والأهمية قراءة اللفظ المقدم "عليهم" من خلال السياق وتكاد تجتمع كلمة المفسرين على أن الضمير فى "عليهم" راجع إلى اليهود يقول: الطبرى: "واتل على هؤلاء اليهود الذين هموا أن يبسطوا أيديهم إليكم عليك وعلى أصحابك معك"(٣).

ويقول أبو حيان: "والضمير فى "عليهم" ظاهره أنه يعود على بنى إسرائيل إذ هم المحدث عنهم أولا، والمقام عليهم الحجج بسبب همهم ببسط أيديهم إلى الرسول والمؤمنين فأعلموا بما هو فى غامض كتبهم الأول التى لاتعلق للرسول بها إلا من جهة الوحى لتقوم الحجة بذلك عليهم إذ ذلك من دلائل النبوة"(٤).

---

(١) الكتاب: سيبويه جـ١ صـ ٣٤ ت.أ/ عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، ط الثالثة ١٤٢٨هـ/١٩٨٨م.

(٢) دلائل الإعجاز ص ١١٩.

(٣) جامع البيان فى تفسير القرآن٠ الطبرى ج٥ ص ١١٩، ١٢٠.

(٤) البحر الميحط، أبو حيان الأندلسى، ج٣ ص ٤٧٥٠ ت/ الشيخ عادل عبد الموجود وآخرين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط أولى ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م، وينظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبى ج ص ٢١٣، وتفسير سورة المائدة د/ مصطفى العدوى، ص ٢١١٠ مكتبة مكة، ط أولى ١٤٢٥هـ /٢٠٠٤م.

فالتقديم فى "عليهم" للأهمية وتلك الأهمية نابعة من أن التلاوة ابتداء لليهود ناقضى العهود الذى هموا أن يبسطوا أيديهم إلى النبى (ﷺ) بالسوء فهم فى أمس الحاجة إلى تدبر النبأ ومعرفة ماذا جر الحسد والحقد على القاتل، حتى كانت عاقبته الندم والخسران فاليهود هم المقصودون أولا بهذا النبأ بدليل قوله تعالى بعد نهاية النبأ:

﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴾ المائدة: ٣٢.

فهم قوم قد شاع فيهم الحقد وسفك الدماء، فهذا النبأ أكثر علوقا بهم، فـ"عليهم" أوثق بغرض الكلام وسياقه لأن المتلو عليهم وهم اليهود ابتداءً في حاجة ماسة لسماع هذا النبأ وتدبره والاتعاظ به.

ويبقى في هذا الجار والمجرور "عليهم" لطيفة رائقة، وهى أن هذا الضمير يعود على يهود المدينة، ولم يجر لهم ذكر وإنما الحديث قبل هذا النبأ كان عن اليهود الذين عاشوا مع موسى (عليه السلام)، فهم حاضرون فى الذهن، معروف عنهم سفك الدماء وقتل الأنبياء فلا حاجة للنص عليهم، كما أن فى ذلك نكتة أخرى بديعة وهى أن اليهود هم اليهود فى كل عصر وفى كل مصر فما يفعله الآباء يتوارثه الأحفاد، فيهود المدينة على طريق من سبقهم فى الحقد والحسد والعناد والمكابرة والعصيان، ونجد هذا المعنى أيضا فى قوله تعالى ﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا

﴿ ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴾ النساء: ١٥٣.

فالذين سألوا النبى (ﷺ) بينهم وبين الذين سألوا موسى (عليه السلام) آلاف السنين إلا أن الضمير عاد إليهم.

فعود الضمير فى "عليهم" هنا وصل الزمان بالزمان، وألحق الأجيال بالأجيال وأغنى عن مئات الجمل والعبارات التى تظهر حال يهود وأنهم وأجدادهم في الحقد والحسد والمكر سواء ليستحقوا اللعن فى كل زمان ومكان، ويتنبه المسلمون لهم فى كل عصر ومصر وأوان.

ويأتى مفعول التلاوة وهو قوله تعالى: "**نبأ ابنى آدم**"، و"**النبأ**" هو الخبر الذى له شأن عظيم، ومنه اشتقاق النبوة، لأن النبى مخبر عن الله تعالى"(١)، وذكر أبو هلال العسكرى أن النبأ لا يكون إلا للإخبار بما لا يعلمه المخبر(٢).

وهذا المعنى لايطرد ففى قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِىُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ ۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ التحريم: ٣.

فقد استعملت مادة "النبأ" فيما هو معلوم للنبى (ﷺ) وأزواجه، فالأولى أن نقول إن "النبأ" تأتى فى مقام الاحتشاد والصدق والتحقيق(٣).

فلفظ "نبأ" يشعر بخطورة الأمر وعظيم شأنه.

---

(١) ينظر: المفردات فى غريب القرآن، ص ٤٨٢.

(٢) الفروق فى اللغة أبو هلال العسكرى، ص ٣٣.

(٣) الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية، صبَّاح عبيد دراز، مطبعة الأمانة الطبعة، الأولى ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

ومعلوم أن اللفظ القرآني لا يرد في الآية إلا إذا كان يقتضيه السياق ويطلبه النظم دون غيره من المترادفات، ولفظ "نبأ" هنا يضفى تشويقا واستثارة للذهن على معرفة حكاية هذا النبأ.

فأين تلك الكلمة الحية الموحية من "قصة" أو "خبر" لو قيل: "خبر أو قصة ابنى آدم"؟!.

إن الكلمة "نبأ" تضفى على الأحداث مزيداً من الأهمية والتفخيم يجعل المتلقى فى لهفة وشوق إلى معرفة حكاية هذا النبأ.

"فالقرآن الكريم يتأنق فى اختيار الألفاظ، ويستخدم كلا حيث يؤدى معناه فى دقة فائقة تكاد تؤمن معها بأن هذا المكان إنما خلقت له هذه اللفظة، دون سواها، ولذلك لا تجد فى القرآن ترادفا بل كل كلمة تحمل إليك معنى جديدا"(١).

ويزداد التشويق وتتضاعف الإثارة ويزداد الإلهاب عندما يضاف هذا النبأ إلى "ابنى آدم"، فتتسع منافذ الإدراك وقنوات الإحساس عند المتلقى إذ ارتبط هذا النبأ ببيان قصة من قصص الغابرين وهما ابنا آدم (عليه السلام).

والراجح أنهما ولدا آدم لصلبه وقيل ليسا لصلبه، بل كانا رجلين من بنى إسرائيل والصحيح أنهما لصلبه إذ كيف يجهل صورة الدفن أحد من بنى إسرائيل حتى يهتدى بالغراب؟! ولأن النبى (ﷺ) قال عنه: "إنه أول من سن القتل" فهما ولدا آدم هابيل وقابيل"(٢).

---

(١) من بلاغة القرآن د/ أحمد بدوى، ص ٥٧، نهضة مصر، بدون.

(٢) ينظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبى ج٣ ص ٢١٣٠، وتفسير القرآن العظيم، ابن كثير ج٣ ص ٦٢، وروح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى الألوسى، ج٦ ص ١١١، دار الفكر بيروت، ص ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، وزاد المسير فى علم التفسير، ابن الجوزى ج٢ ص ١٩٧، ت٠أ/ أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط أولى ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

وتبدو دقة النظم القرآنى وجماله وكماله فى إضافة هابيل وقابيل بلفظ "البنوة" إلى آدم (عليه السلام)؛ فلم يأت التعبير مثلا: نبأ ولدى آدم أو نبأ هابيل وقابيل إنما جاء التعبير "ابنى آدم" وذلك لأن لفظ "ولد" اسم يجمع الواحد والكثير والذكر والأنثى، والصغير والكبير"(١).

ولذلك جاء هذا اللفظ فى كل آيات المواريث قصدا لهذا المعنى أما لفظ "ابن" فقد لوحظ أنه يأتى للدلالة على الذرية من الذكور فى مرحلة الكبر والنضج فقط كما فى الآيات التالية:

﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ البقرة: ١٣٢.

﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ البقرة: ١٣٣.

﴿ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ هود: ٤٢.

﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ هود: ٤٥.

(١) ينظر: لسان العرب " ولد "، والمفردات فى غريب القرآن ص ٥٤٧٠

﴿ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴾ يوسف: ٥.

﴿ إِذۡ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴾ يوسف: ٨.

﴿ وَإِذۡ قَالَ لُقۡمَٰنُ لِٱبۡنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ﴾ لقمان: ١٣.

﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ الصافات: ١٠٢.

فالملاحظ أن لفظ "ابن" يستخدم فى مرحلة النضج والتكليف بأمور عظيمة، وذلك راجع إلى أصل المادة المشتق منها "ابن" وهى مادة "بنى" فقد سمى الابن ابنا لكونه بناء الأب فإن الأب هو الذى بناه وجعله الله بناءً فى إيجاده، ويقال لكل ما يحصل من جهة شئ أو من تربيته أو بتفقده، أو كثرة خدمته له أو قيامه بأمره هو ابنه"(١).

وتوظيف ذلك فيما نحن بصدده، يبين أن النظم الكريم آثر لفظ" البنوة" دون غيره مراعاة للدلالة على أن أحداث النبأ قد وقعت منهما وهما فى كمال النضج والتكليف وأنهما قد ربيا فى كنف أبيهما، ومع ذلك فقد أتت تلك التربية أكلها مع واحد ولم تنفع الآخر، فيتضح عظيم جرمه وقوة طغيانه، فبالرغم من أنه ربى فى كنف أبيه وهو النبى إلا أنه ارتكب أسوأ الجرائم وأفظعها، وذلك ليظل المسلم على ذكر أن الهداية من الله (ﷻ) وأننا مع اتباعنا لأسباب التربية النافعة

(١) المفردات فى غريب القرآن، ص ٧٢.

لأولادنا، فعلينا أن نتلمس لهم الهداية من الله (ﷻ) فابن نوح (عليه السلام) كان كافرا، وهذا ابن آدم (عليه السلام) كان قاتلا، وابن آذر كان نبيا مرسلا، وسبحان الله الذى يدبر الأمر ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

كما أنه لم يأت النظم بتسمية الولدين باسميهما لأن النظم قاصد ألا نتعلق بأسماء بل العبرة بالحدث ونتائجه.

وفى إضافة "ابنى" إلى "آدم" من اللطافة ما فيه إذ من خلال هذه الإضافة استشعرنا الزمن الذى وقعت فيه هذه الأحداث، فجعلت الذهن يرجع بذاكرته إلى عصور الإنسانية الأولى فأغنت عن كلام كثير يدل على زمن وقوع هذه الأحداث، وهذه الإضافة ــ أيضا ــ جعلت النبأ إنسانى المعنى ينسحب معناه على كل ذرية آدم (عليه السلام) فى كل عصر ومصر، مهما تعاقبت الأزمان، لأن كل مخلوق ما هو إلا ابن لآدم (عليه السلام)، فإذا كان "ابنى آدم" بهذه الصياغة قد دل على وقوع الحدث فى الزمن الغابر فهو فى الوقت ذاته جعل النبأ حاضرا مع كل نفس، قريبا من كل ذرية يهمس فى كل أذن بالاعتبار والاتعاظ، ولم لا وكلنا أبناء لآدم (عليه السلام)؟!.

وهــذا شأن ألفاظ القرآن الكريم فى كريم عطائها ودقيق إيحائها، فالمعنى الواحد "يعبر عنه بألفاظ لا يجزئ واحد منها فى موضعه عن الآخر إن أريد شرط الفصاحة، لأن لكل لفظ صوتا ربما أشبه موقعه من الكلام، ومن طبيعة المعنى الذى هو فيه، والذى تساق له الجملة، وربما اختلف وكان غيره بذلك أشبه، فلا بد فى مثل نظم القرآن من إخطار معانى الجمل، وانتزاع جملة ما يلائمها من ألفاظ اللغة، بحيث لا تند لفظة ولا تتخلف كلمة، ثم استعمال أمسها بالمعنى وأفصحها فى الدلالة عليه، وأبلغها فى التصوير وأحسنها فى النسق،

وأبدعها سناء وأكثرها غناء وأصفاها رونقا، وماء، ثم اطراد ذلك فى جملة القرآن على اتساعه فى الكلمة وفى الحرف من الكلمة"(١).

وما زلنا مع إشعاعات هذه الجملة الزكية ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ ﴾.

فهذا النبأ يتلوه النبى (ﷺ) "بالحق" والباء تدل على الإلصاق الذى هو أصل معانيها"(٢).

فقد ألصقت الحق "وجعلته ملتبسا بما تعلق به، ويكون حالا من فاعل" اتل... أى: اتل ذلك حال كونك ملتبسا بالحق، أو حالا من مفعوله وهو "نبأ" أى واتل نبأهما متلبسا بالصدق موافقا لما فى كتب الأولين، وقد يكون صفة لمصدر "اتل"، أى: اتل ذلك تلاوة ملتبسة بالحق والصدق"(٣).

وعلى كل فالحق يظـــلل النبأ والتلاوة وتاليه، لكـــن يبقى ســـــــؤال:

ما فائدة ذكر هذا القيد "بالحق؟ وهل رسول الله (ﷺ) يتلو تلاوة غير ملتبسة بالحق حتى يؤتى بهذا القيد لإبعاد شبهة الكذب والتدليس؟!

---

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية الرافعى، ص ٢٥٦.

(٢) مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام الأنـــصارى، ج١ ص ١١٨ ت٠ أ/ محـــى الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا بيروت، بدون.

(٣) ينظر: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل، الإمام الزمخشرى ج١ ص ٦٠٦، دار الفكر، ط أولى ١٣٩٧هـــ/ ١٩٧٧م، والدر المـــصون فـــى علـــوم الكتاب المكنون، السمين الحلبى ج٤ ص ٢٣٨ ت. د/ أحمد محمد الخراط، دار القلـــم، دمشق، بدون، ط أولى ١٤١٤هـــ/ ١٩٩٤م، وحاشية القونـــوى علـــى تفـــسير الإمـــام البيضاوى، ومع حاشية ابن التمجيد لمصلح الدين الرومى، ج٧ ص ٢٤٤٠ ت.د/ عبـــد الله محمود عمر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط أولى ١٤٢٢هـــ/ ٢٠٠١م.

إن هذا لم يتطرق إلى ذهن المشركين فهو عندهم الصادق الأمين الذى لم يجربوا عليه كذبا قط فهل يتطرق إلى مسلم؟!

أقــول: إن هذا القيد "بالحق" يهب معنى عظيما ودلالة قوية تعكس قيمة هذا الدين، فالله (ﷻ) هو الحق: قال تعالى:

﴿ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ ﴾ الأنعام: ٦٢.

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ الحج: ٦.

﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ ﴾ المؤمنون: ١١٦.

﴿ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ العنكبوت: ٤٤.

وأنــزل الله القـــرآن كلـــه بالحـــق:

﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا ﴾ النساء: ١٠٥.

﴿ وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَۗ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴾ الإسراء: ١٠٥.

بل إن الله (ﷻ) يتلو آياته على نبيه (ﷺ) بالحق..

﴿ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ آل عمران: ١٠٨.

والحق هو الثابت الذى لا شك فيه وهو نقيض الباطل، والعربية قد استعملته حسيا فى الطعنة لا زيغ فيها، والمحقق من الثياب المحكم النسيج، والحق من الإبل الذى اشتد واستحق أن يركب،والأمر المقضى والموت، وهو

اسم من أسماء الله الحسنى، وكثر استعماله بمعنى الوحى ورسالات الدين وجاءت صيغة "الحق" نحو مائتين وسبع وعشرين مرة كلها فى المعنى الدينى إما مقابلة للباطل أو اسما من أسماء الله الحسنى أو للوحى والدين "(١).

فالحق هو لب هذا الدين فديننا هو دين الحـــق.

قال الله (ﷻ):﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴾ التوبة: ٣٣، والصف ٩٠.

ذكرت تلك الآيات لنحاول فهم هذا القيد "بالحق" مع تلاوة هذا النبأ.

إن هذا القيد يوحى بأن يكون علمنا ملتبسا بالحق، وملتزما بالحق فهذا من الأهمية بمكان لكل تال، فها هو الرسول (ﷺ) يؤمر أن يتلو بالحق "فليكـــن هذا طريق العلم وطريق الثقافة وطريق كل ما يصل إلى قلوب الناس لأن الثقافة أو المعرفة الملتبسة بالباطل تفسد الناس وتفسد حياة الناس"(٢).

فكأن هذا القيد "بالحق" تربية عظيمة لأفراد الأمة على الحق فى الأقوال والحق فى الأفكار والحق فى المعاملات، والحق فى قراءة القرآن، والحق فى تدبره، لأنه شرعة الحق.

وفى هذا القيد أيضا "بالحق" تذكير بحال اليهود الذين بدلوا وحرفوا وغيروا، فغضب الله عليهم ولعنهم ويذكى هذا المعنى أن نبأ ابنى آدم ورد فى

---

(١) ينظر: لسان العرب "حقق"، والتفسير البيانى للقرآن الكريم، د/ عائشة عبد الرحمن، ج٢ ص ٨٨ ومابعدها، دار المعارف، ط الخامسة ١٣٨٨هـــ/ ١٩٦٨م.

(٢) آل حم "الجاثية والأحقاف" دراسة فى أسرار البيان، د/ محمد أبو موسى، ص ٧٠ مكتبة وهبة، ط أولى ١٤٣١هـــ/ ٢٠١٠م.

الإصحاح الرابع من سفر التكوين من أسفار التوراة بصورة محرفة عما جاء فى كتاب الله (ﷻ)"(١).

ولذلك كان من هيمنة كتاب الله (ﷻ) على ما سبق من الكتب أنه يقص عليهم الأنباء الصادقة ويصحح لهم ما اختلفوا فيه قال تعالـــــــى:

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ النمل: ٧٦.

وإن كان الشعراء يستطيعون ولوج قولبنا وعقولنا وشد أسماعنا من خلال تأنقهم فى مفتتح قصائدهم فما بالنا ببراعة استهلال النظم الكريم لهذا النبأ، ومعلوم أن أحسن الابتداءات ما ناسب المقصود"(٢).

وكل ابتداءات القرآن الكريم فى غاية الجمال والحسن والبهاء.

فقد ابتدئ النبأ بهـــذه الجملة:

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ ﴾، وقد حازت تلك الجملة كل أوصاف الحسن فشوقت ودلت على أن الأمر جد عظيم، فالنبى (ﷺ) مأمور من ربه أن يلتو، وأى شئ يتلوه إنه "نبأ" وهى كلمة لها وقعها وأثرها فى النفس، وهو ليس كأى "نبأ" إنما هو "نبأ" من الزمن الغابر.. مما ضاعف إحساس النفس بخطورته وأهميته وجاء قوله "بالحـــق" ليلقى مهابة وإجلالا على هذا النبأ، فكل ذلك من شأنه أن يشنف الآذان ويفتح العقول ويشغل القلوب بمعرفة هذا المضمون، فإذا ما جاء سرد الحكاية بعد ذلك وقعت فى النفس موقعا، فيزداد التأثر بها والاتعاظ بأحداثها.

---

(١) ينظر: الأساس فى التفسير، الشيخ سعيد حوى، ج٣ ص ١٣٦٢.

(٢) الإيضاح، الخطيب القزوينى، ج٦ ص ١٥١ ت٠د/ محمد عبد المنعم خفاجى، دار الجيل بيروت، ط الثالثة بدون.

وتبدأ أحداث النبأ بهذا المدخل الجليل الخلاب الذى أدخلنا بسرعة خاطفة إلى بؤرة الأحداث:

﴿ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ المائدة: ٢٧.

"وإذ "تأتى ظرفا لما مضى من الزمان وتلازم الظرفية"(١) ولذلك يأتى الفعل بعدها ماضيا لفظا ومعنى، وفيها أوجه ذكرها العلماء وتتلخص فيما يأتـــى:

١ــ "إذ" ظرف متعلق بـــ "نبأ" أى اتل قصتهما وحديثهما فى ذلك الوقت وإلى هذا ذهب الزمخشرى وأبو البقاء العكبرى"(٢).

٢ــ "إذ" بدل من "نبأ" على حذف مضاف ليصح كونه متلوا، وتقدير ذلك: "واتل عليهم النبأ نبأ ذلك الوقت"(٣).

٣ــ "إذ" حال من "نبأ" متعلق بمحذوف(٤)، والراجح ما ارتضاه الزمخشرى إذ لاتكلف فيه وليس فيه خروج عن معناها الأصلى وهو الظرفية، والأليق بنسق الكلام هذا التقدير: " اتل قصتهما فى ذلك الوقت٠٠٠ "

---

(١) ينظر: شرح التسهيل لابن مالك، ج٢ ص ٢٠٦٠ت أ/ عبـد الـرحمن الـسيد ومحمـد المختون، مكتبة هجر، ط أولى ١٤١٠هـــ/١٩٩٠م، والجنى الدانى،المرادى ص ١٨٥.

(٢) ينظر: الكشاف، ج١ ص ٦٠٦، وإملاء ما من به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات فى جميع القرآن لأبى البقاء العكبرى، ص ٢١٩، دار الفكر، بيروت ط أولى ١٤٠٦هـــ / ١٩٨٦م.

(٣) ينظر: مفاتيح الغيب، ج١١ ص ٢١٠، والبحر المحيط، ج٣ ص ٤٧٦.

(٤) ينظر: إملاء ما من به الرحمن العكبرى، ص ٢٢٠، ويراجع: دراسات لأسلوب القرآن الكريم، الشيخ محمد عبد الخالق عضمية، ج١ ص ١٢٣، القـسم الأول، دار الحـديث، القاهرة بدون.

فهذه هى الدلالة الأصلية لحرف الظرفية "إذ" التى تتسق فى الدلالة على الزمن الغابر مع ما قبلها "ابنى آدم" والفعل الماضي بعدها "قرب"، فقد أذكت معنى المضى وأكدت على حدوث القصة فى بدايات الحياة على هذه الأرض فوصلت الماضى بالحاضر ونلحظ فى "إذ" معنى ذكره ابن عيش، وهو الإبهام إذ يقول:

"أما" إذ "فإنها تقع على الأزمـــنة الماضية كلها، مبهمة فيها لا اختصاص لها ببعضها دون بعض، فاحتاجت لذلك إلى ما يوضحها ويكشف عن معناها، وإيضاحها يكون بجملة بعدها، فصارت بمنزلة بعض الاسم وضارعت" الذى "والأسماء الناقصة المحتاجه إلى الصلات"(١).

وهذا المعنى الخصب فيها إذا ما نفح من علم البلاغة ونظر إليه من خلالها فإنه يخرج اللطائف والنكات.

فهذا الإبهام الموجود فى "إذ" يجعل النفس على تشوق لمعرفة ما بعدها، فيكون ذلك ألذ فى النفس وأوقع فى العقل، فإذا ما جاء ما بعدها وهو قوله تعالـــــــى:

"**قَرَّبَا قُرْبَانًا**" تمكن فى النفس أيما تمكن فيزداد الأثر ويعمق التأثـــــير.

والقربان ما قرب إلى الله (ﷻ) وتقربت به، وصار فى التعارف اسما للنسيكة التى هى الذبيحة وجمعه قرابين(٢).

وقد جاء لفظ "قربان" مفردا، مع أن السياق يدل على أن المقرب قربانين اثنين، ولذلك خرج العلماء ذلك على ثلاثة آراء:

---

(١) شرح المفصل لابن يعيش، ج١ ص ٩٥، ومابعدها، عالم الكتب، بيروت٠بدون.

(٢) ينظر: لسان العرب، " قرب " والمفردات فى غريب القرآن، ص ٤٠١.

الأول: أن فى الكلام تقديرا أى قرب كل واحد منها قربانا.

الثانى: أن القربان اسم جنس فهو يصلح للواحد والعـــدد.

الثالث: أن القربان مصدر كالرجحان والعدوان والمصدر لايثنى ولا يجمع(١).

وقد أورد العلماء هذه الآراء دون ترجيح اللهم إلا الزمخشرى فقد اختار أن القربان اسم جنس فهو يصلح للواحد والعدد، والطاهر ابن عاشور رجح القول بالمصدر.

وأرى أن الأنسب هو الأخذ بما رآه الزمخشرى فـــ "قربان" هنا اسم جنس وإفراده إنما جاء لسر بلاغى لطيف،وذلك للإشارة إلى تساويهما فى ذاتهما أمام الله (ﷻ) وأن العبرة ليست فى قيمة القربان، وإنما فى نية صاحبه، فالنية "هى سر العبودية وروحها ومحلها من العمل محل الروح من الجسد، ومحال أن يعتبر فى العبودية عمل لا روح له معه"(٢).

والذى يدل على ذلك أن التقبل وعدمه لحظ فيه الأخوان المقربان، ولم يلحظ فيه الشئ المقرب، وكذلك كان الأمر عندما حكى القرآن على لسان هابيل: "إنما يتقبل الله من المتقين" فلم يلحظ القرابين ذاتها وإنما من يقدم القربان إلى ربه (ﷻ).

---

(١) ينظر: الكشاف، ج١ ص ٦٠٦ ومابعدها، ومفاتيح الغيـــب، ج١١ ص ٢١٠، وإرشـــاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب العزيـــز" تفـــسيرأبى الـــسعود،" ج٣ ص ٢٦ ط الرابعـــة ١٤١٤هـــ / ١٩٩٤م، والفتوحات الإلهية سليمان بن عمر الشهير بالجمـــل، ص ٢٢١، دار الفكر ١٤١٥هـــ/ ١٩٩٤م، وحاشية الشيخ زادة على تفـــسير البيـــضاوى، ج٢ ص ١٠٨، المكتبة الإسلامية، التحرير والتنوير/ ج٦ ص ١٩٩.

(٢) الإحكام فى أصول الأحكام لابن حزم الظاهرى، ج٢ ص ٧٠٦، ت٠أ/ زكريا يوســف، ط الثانية القاهرة.

ويؤكد هذا أيضا أن النظم سكت عن الشئ المقرب وتحديده فلم يُقل مثلا: إذ قرب أحدهما كبشا والآخر زرعا، فالسكوت عن ذلك دليل آخر على التأكيد على ملاحظة قلب المقرب لاعين المقرب، فلا عبرة بكونه كبيرا أو صغيرا، بقرا أو غنما أو زرعا أو غير ذلك.

كما أن التعبير عما يقدم طاعة لله (ﷻ) بلفظ "القربان" أليق بمقام الألوهية، إذ إن الشئ أيا كان اسمه ووصفه بمجرد نية صاحبه أصبح قربانا لله (ﷻ) وفى ذلك قطع للنفس عن التعلق بما صار إلى ابتغاء مرضات الله (ﷻ)، وهكذا اللفظ القرآنى يضرب بإشعاعاته هنا وهناك فلا تدرى ما الذى أخذناه وأى شئ أبقيناه؟! وقــد ملك علينا جوانحنا وأدخل على النفس الإبهار والإعظام من جميع مآربها، وصدق الإمام حين قال: "وبهرهم ــ أى بهر القرآن الكريم العرب ــ أنهم تأملوه سورة سورة وعشرا عشرا وآية آية فلم يجدوا فى الجميع كلمة ينبو بها مكانها ولفظة ينكر شأنها أو يرى أن غيرها أصلح هناك أو أشبه أو أحرى أو أخلق، بل وجدوا اتساقا بهر العقول، وأعجز الجمهور، ونظاما والتئاما، وإتقانا وإحكاما"(١).

وبين "قرب" و "قربانا" جناس اشتقاقى(٢) أحدث تنغيما عذبا استصغى الآذان واستمال النفوس وجعل القلوب مشدودة لسماع المعانى "فإن تشابه ألفاظ التجنيس تحدث بالسمع ميلا إليه فإن النفس تتشوق إلى سماع اللفظة الواحدة إذا كانت بمعنيين وتتوق إلى استخراج المعنيين المشتمل عليهما ذاك اللفظ، فصار للتجنيس وقع فى النفوس وفائدة"(٣).

---

(١) دلائــل الإعجاز، ص ٣٩.

(٢) ينظر: الإيضاح ج٦ ص ٩٠.

(٣) جوهر الكنز لابن الأثير الحلبى، ص٩١ ت٠د/ محمد زغلول سلام، منشأة المعــارف، الإسكندرية، بدون.

وهذا الجناس فى المرتبة العليا من استدعاء المعنى له فلا يليق بجناس القرآن أن يأتى لمجرد حلية لفظية، فهذا مما ينأى عنه الكلام البليغ بله كلام الله المعجز، فهو من النوع الذى عناه عبد القاهر حيث قال ــ بعد أن ذكر المستحسن من التجنيس والسجع ــ " فقد تبين من هذه الجملة أن المعنى المقتضى اختصاص هذا النحو بالقبول هو أن المتكلم لم يقد المعنى نحو التجنيس والسجع، بل قاده المعنى إليهما وعثر به عليهما، حتى إنه لورام تركهما إلى خلافهما ممالا تجنيس فيه ولاسجع لدخل من عقوق المعنى وإدخال الوحشة عليه فى شبيه بما ينسب إليه المتكلف للتجنيس المستكره، والسجع النافر، ولن تجد أيمن طائرا وأحسن أولا وآخرا، وأهدى إلى الإحسان، وأجلب إلى الاستحسان، من أن ترسل المعانى على سجيتها، وتدعها تطلب لأنفسها الألفاظ، فإنها إذا تركت وما تريد لم تكتس إلا ما يليق بها ولم تلبس من المعارض إلا ما يزينها"([1]).

وهكذا نجد الأمر فى كل أجناس القرآن الكريم المعنى هو الذى طلبه واستدعاه، ولو غيرت كلمة "قربان" بأى مرادف أو أى شئ يقوم مقامها فهل أنت واجد عطاءً مثل عطائها وجمالا يقرب من روض جمالها؟!.

وكان نتيجة هذا التقريب ما جاء فى قوله تعالى: "**فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر**".

---

(١) أسرار البلاغة الشيخ عبد القاهر الجرجـــانى، ص ١٤ ت. الـــشيخ / محمـــود شـــاكر مكتبة الخانجى، ط أولى ١٩٩١م.

ولأن الله عدل مطلق فى كل ما يصدر عنه فجاء الحكم خلوا من أى حيثيات سواءً فى قبوله للقربان أو رده، وإن كان قد وضح السبب بعد ذلك على لسان "هابيل".

وقد جاءت الجملة مصدرة بالفاء: فتقبل٠٠"، و"الفاء" تضم الشئ إلى الشئ كما فعلت "الواو" غير أنها تجعل ذلك متسقا بعضه فى إثر بعض([1]).

فالفاء أوحت بسرعة وقوع الأحداث وتواليها وتتابعها وذلك يناسب مجريات الأحداث، وتصاعدها إلى بؤرة الحـــدث٠

ويعـــلل الدكتور/ محمد الخضرى لاستعمال "الفاء" فى الدلالة على الأحداث المتعاقبة تعليلا دقيقا فيقول:" وإنك لتعجب لهذه اللغة التى اختارها الله وعاء لكتابه، وكيف توائم بين الألفاظ ودلالاتها فى إحكام يشهد بأن الله أسبغ عليها ما يؤهلها لاستيعاب أسرار الإعجاز فى القرآن المجيد، والدليل على ذلك أنها اختارت اللفظ الأقصر صوتا والأسرع نطقا ليدل على سرعة تعاقب الأحداث، كما هو شأن الفاء المكونة من حرف واحد يمر بظاهر الشفة همسا، وكأن ما عبر عنه من الأحداث يمر بسرعة صوته"([2]).

فهذه "الفاء" طوت الزمن بين تقديم القربانين وقبولهما أو ردهما.

ويستوقفنا الفعل "تقبل" وللأفعال فى الكلام البليغ فضلا عن الكلام المعجز دلالات وأسرار، فقد جاءت صياغة الفعل على وزن "تفعل" وفرق بين هذه الصياغة وصيغة "فعل"، فمعلوم أن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى فمتى

---

(١) الكتاب، ج٤ ص ٢١٧.

(٢) من أسرار حروف العطف فى الذكر الحكيم، "الفاء" و"ثم " د/ محمد الخضرى، ص ١٠ مكتبة وهبة، ط أولى ١٤١٤هـــ / ١٩٩٣م.

كان اللفظ " على وزن من الأوزان ثم نقل إلى وزن آخر أعلى منه فلا بد أن يتضمن من المعنى أكثر مما تضمنه أولا"(١).

فقد دلت "تقبل" على مزيد من الاهتمام والاعتناء بالقربان المتقبل ففى زيادة المبنى زيادة فى الاحتفاء بالشئ المقبول ولعل هذا الاحتفاء هو ما عبر عنه الراغب بقوله: "والتقبل قبول الشئ على وجه يقتضى ثوابا"(٢).

وإذا تمثلنا هذه المعاني فى الفعل المنفى "ولم يتقبل٠٠" يتبين أن نفى الفعل بهذه الصيغة، يدل على أن صاحب هذا القربان قد بلغ من بغض الله (ﷻ) له،أن رد الله (ﷻ) قربانه ردا شديداً على وجه يسوء صاحبه ويعاقب عليه.

والملاحظ أن الفعل "تقبل" عدى بـــ "من" هنا وفى آيات أخرى عدى بـــ "عن"، وقد أورد سلطان العلماء سؤالا فى ذلك الأمر وأجاب عليه، فقال "فائدة: يتقبل لايتعدى إلا بـــ "من" فلم عدى هاهنا بـــ "عن" الجواب أنه ضمن"يتقبل" معنى"يؤخذ"، وضمن "أخذ" معنى "رضى"، لأن من أخذ الشئ فقد رضيه، ورضى يتعدى بـــ "عن"(٣).

وفى كلام سلطان العلماء نظر لأن هذا الفعل عدى فى القرآن الكريم ثلاث مرات وليس فى آية الأحقاف فقط والتى عناها بقوله "هاهنا" وهـــذه الآيات هى: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ التوبة: ١٠٤.

---

(١) البرهان فى علوم القرآن، الزركشى، ج٣ ص ٣٤٠.

(٢) المفردات فى غريب القرآن، ص ٣٩٣٠.

(٣) فوائد فى مشكل القرآن، عز الدين بن عبد الـــسلام، ص ٢٣٣ ت٠د/ ســـيد رضـــوان الندوى، دار الشروق، ط الثانية ١٤٠٢هـــ / ١٩٨٢م.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ الشورى: ٢٥.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴾ الأحقاف: ١٦.

والشيخ ــ عليه رحمة الله ــ فى تخريجه لذلك تكلف وتعسف إذ جعل الفعل "يتقبل" مضمن لمعنى "أخذ" و "أخذ" مضمن لمعنى رضى "وكأن الفعل فى ذاته لا يصلح أن يأتى معه" عن"، وكان الأولى البحث فى أسرار التناوب بين "من" الابتدائية وحرف المجاوزة "عن" مع فعل التقبل، من خلال استنطاق السياقات التى جاء فيها الحرفان.

ولعــل السر البلاغى فى ذلك أن تعدية الفعل "تقبل" بـــ "من" فيها دلالة على الاهتمام والعناية بالذات أو الجهة التى يتقبل منها، وتعديته بـــ "عن" تدل على الاهتمام والعناية بتقبل العمل الصادر عنها، فإذا كانت العناية والاهتمام بالذات أو الجهة التى يتقبل منها عداه بـــ "من"، كما هو الحال هنا، أما إذا كان محط العناية والاهتمام على العمل وقبوله فإنه يعديه بـــ "عن"، وحيث عدى الفعل "تقبل" بـــ"من" لم يذكر له مفعولا أو هو يبنيه للمجهول مما يدل على الاهتمام بالذات أو الجهة التى يتقبل منها، فإذا عداه بـــ "عن" ذكر العمل، كما فى الآيات السابقة فقد ذكر فيها المفعول فدل على أن مناط الاهتمام بالعمل مع تعدية الفعل بـــ "عن" ومناط "الاهتمام بالذات أو الجهة مع تعديته بـــ "من"(١).

(١) بتصرف من كتاب: أسئلة بيانية فى القرآن الكريم، د/ فاضل السامرائى، ص ٥٤ /٥٥، مكتبة التابعين، القاهرة، ط أولى ١٤٢٦هـــ/ ٢٠٠٨م.

وهذا المعنى يتوافق مع ما ذكر سابقا من أن العبرة ليست فى ذات القربان وإنما فى نية صاحبه والجهة الصادرة منه.

ويلمح الدكتور الخضرى سرا آخر لمجىء "من" و"عن" مع هذا الفعل، فيقول أن ما جاء متعديا بـــ "عن" يأتى فى سياق التوبة والتجاوز عن السيئات، فتجئ "عن" فى هذه المواضع إشعارا بقبول أعمالهم الصالحة وتوبتهم الخالصة، والتجاوز عن سيئاتهم فأدت معنى "من" وزادت عليها محو الذنوب وصرفها عنهم فضلا منه ورحمة وما جاء بحرف الابتداء لا يراد منه إلا قبول العمل(١)، ويستدل أستاذنا بآية المائدة موضع الدراسة ثم يعلق عليها ويقول:

"وغرض الآية هو الإخبار بقبول عمل صالح خالص لوجهه تعالى، ورد عمل آخر لم يقرن بالتقوى والإخلاص، دون الإشارة إلى المغفرة والتجاوز عما سبقه من الذنوب والسيئات"(٢).

وأرى أن الأولى هو ما ذكر أولا من كون "من" تأتى عندما يكون القصد إلى الجهة الصادر عنها العمل وتأتى "عن" عندما يكون مناط الاهتمام بالعمل ذاته، أما أن "من" لا تفيد إلا قبول العمل مع عدم التجاوز عن السيئات، فهذا مالا دليل عليه بل إن قبول العمل معناه الإثابة عليه لأنه من الحسنات، والحسنات يذهبن السيئات.

وقد جاءت صياغة فعلي "التقبل" بالبناء لما لم يسم فاعله، وأجمل ما قرأت تعليلا لذلك هو ما خطه الشيخ سيد قطب ــ عليه رحمة الله ــ حيث قال: "والفعل مبنى للمجهول ليشير بناؤه هكذا إلى أن أمر القبول أو عدمه موكول

---

(١) من أسرار حروف الجر فى الذكر الحكيم، د/ محمد الأمين الخضرى، ص ٣٢٢، مكتبة وهبة، ط أولى، ١٤٠٩هـــ / ١٩٨٩م.

(٢) ينظر: السابق، ص ٣٢٥ / ٣٢٦.

إلى قوة غيبية وإلى كيفية غيبية وهذه الصياغة تفيدنا أمرين: **الأول:** ألا نبحث عن كيفية هذا التقبل ولا نخوض فيه كما خاضت كتب التفسير فى روايات نرجح أنها مأخوذة من أساطير العهد القديم.

و**الثانى:** الإيحاء بأن الذى قبل قربانه لا جريرة له توجب الحفيظة عليه وتبييت قتله، فالأمر لم يكن له يد فيه وإنما تولته قوة غيبية بكيفية غيبية تعلو على إدراك كليهما وعلـــــى مشيئته..فما كان هناك مبرر ليحنق الأخ على أخيه وليجيش خاطر القتل فى نفسه فخاطر القتل هو أبعد ما يرد على النفس المستقيمة فى هذا المجال.. مجال العبادة والتقرب، ومجال القدرة الغيبية الخفية التى لادخل لإرادة أخيه فى مجالها"(١).

ويبقى فى الخاطر سؤال وهو: ما فائدة هذه الجملة الكريمة "ولم يتقبل من الآخر" مع أنها مدلول عليها فى الجملة الأولى؟

ففحوى قوله تعالى: فتقبل من أحدهما "أن الآخر لم يتقبل منه، ولعل وجه الفائدة يكمن فى "أن المعنى المدلول عليه دلالة ضمنية أو دلالة فحوى حين يؤتى صريحا بعد هذه الدلالة الضمنية يدل هذا على أنه من المعانى التى لها شأن فى الغرض المسوق له الكلام"(٢).

فعدم تقبل القربان من هذا القاتل عندما يجئ بالدلالة الضمنية ثم بالدلالة الصريحة فيه تأكيد على هذا المعنى ليكون المتلقى على تيقظ وانتباه بحال هذا الأخ الذى رد قربانه فيراجع كل واحد حاله فيلزم صراط الله المستقيم حتى يكون من المقبولين.

---

(١) فى ظلال القرآن، ج٢ ص ٨٧٥.

(٢) ينظر: آل حم الجاثية والأحقاف، د/ محمد أبو موسى ص ٣٤٧.

كما أن فى هذه الجملة "ولم يتقبل من الآخر" تشنيعا على هذا الأخ وأفعاله وتسجيل أكيد لهذا الحدث تنفيرا منه ومن كل ما يصدر عنه، وهو غرض أصيل من الأغراض التى سيق لها هذا النبأ.

وشئ آخر أن مجئ الجملتين "فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر" هكذا فيه لون بديعى خلاب هو طباق السلب"(١).

وذلك من شأنه توضيح النقيضين فيكون المتلقى على بينة كاشفة من أمره فيختار لنفسه أى الحالتين يريد، وهذا شأن الطباق إذ يعمل على إيضاح المعنى وإظهاره وتقويته عن طريق المقارنة بين الضدين، خاصة إذا كان المعنى هو الذى طلبه واستدعاه كما هو الشأن فى كل بديعيات القرآن الكريم، يقول عبد القاهر: "وأما التطبيق والاستعارة وسائر أقسام البديع، فلا شبهة أن الحسن والقبح لا يعترض الكلام بهما إلا من جهة المعانى خاصة، من غير أن يكون للألفاظ فى ذلك نصيب، أو يكون لها فى التحسين أو خلاف التحسين تصعيد وتصويب"(٢).

وهكذا رسمت الألفاظ والكلمات فى أذهان المتلقى صورة واقعية لبداية الأحداث، ركز فيها على المقصود أتم تركيز، فى حين شغل المفسرون بسبب تقديم القربان وأن قابيل رفض الزواج من أخت هابيل وأصر على أن يتزوج توأمته ورفض تزويجها لهابيل، وتحدثوا عن القرابين وكيف أن هابيل قدم كبشا هو الكبش الذى فدى الله به (ﷻ) إسماعيل (عليه السلام)، وأن قابيل قدم أسوأ زرعه،

---

(١) ينظر: الإيضاح، ج٦ ص ١١.

(٢) أســرار البلاغة، ص ٢٠.

وذكروا قصصا لهيئة التقريب وطريقة القبول فالنار تنزل لتأكل المقبول، والطير والسباع تأكل الآخر(١).

كل هذا وغيره امتلأت به كتب التفسير إلا أن التعبير هنا ركز على جوهر الحدث بصرف النظر عن كل هذه الملابسات، إذ لا فائدة فيها.

"فالذى يهمنا أن نعرف ما يومئ إليه النص من حقائق، والقصص صادق وواقع، ولكن نترك ما تركه القرآن، ولا نهيم فى إسرائيليات صادقة أو كاذبة، والنص القرآنى واضح فى مقصده من غير حاجة إلى ما يوضحه من خارجه"(٢).

فالنظم قائم على طى الأحداث غير المؤثرة والسكوت عنها، تركيزا على الحدث الذى يخدم المعنى والغاية والمقصد، كما أن ذلك فيه من الإيجاز ما فيه ذلكم الإيجاز الذى صفى الأسلوب ونخله "اعتمادا على ذكاء المتلقى وتعويلا على إثارة حسه، وبعث خياله، وتنشيط نفسه، حتى يفهم بالقرينة ويدرك باللمحة، ويفطن إلى معانى الألفاظ التى طواها التعبير"(٣).

---

(١) ينظر فى ذلك: جامع البيان، الطبرى ج٥ ص١٢١، ومفاتيح الغيب، ج١١ ص٢١١، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير، ج٣ ص٦٢ ومابعدها والجامع لأحكام القرآن، ج ص ٢١٣١ ومابعدها والفتوحات الإلهية، الجمل ص ٢٢١، ومجمع البيان فى تفسير القرآن، الطبرسى ج٣ ص ٣٠٣، دار الفكر العربى، ط ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م، والبحر المديد فى تفسير القرآن المجيد لابن عجيبة، ج٢ ص ١٧٢ ومابعدها ت٠أ/ وحيد قطب، المكتبة التوفيقية، وفتح القدير الجامع بين فنى الرواية والدراية فى علم التفسير الإمام الشوكانى، ج٢ ص ٣٣ ت٠د/ عبد الرحمن عميرة، ط أولى ١٤١٥هـ / ١٩٩٤م.

(٢) زهرة التفاسير الشيخ/ محمد أبو زهرة، ج٤ ص ٢١٢٢.

(٣) خصائص التراكيب د/ محمد أبو موسى مكتبة وهبة، ط الخامسة ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

وبهذا الإيجاز يصل بنا النسق القرآنى إلى ذروة الصراع وردود الأفعال والذى تمثل فى قول قابيل كما حكى القرآن الكريم:

" قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ "

والقائل هنا هو الذى لم يتقبل منه والمعنى يدل على ذلك والتقدير، قال الذى لم يتقبل منه القربان: لأقتلنك(١).

إلا أن بلاغة الإيجاز تقتضى تصفية الأسلوب لتجئ الجملة على هذا النحو "لأقتلنك" لتكون هذه الجملة بما تحمله من دلالات صادمة فى موضع التركيز وبؤرة الاهتمام.

وهذه الجملة جاءت مفصولة عما قبلها لشبه كمال الاتصال كأنه قيل: فماذا قال الذى لم يتقبل قربانه؟(٢). فقيل: "قال: لأقتلنك".

والفصل فى شبه كمال الاتصال يضرب بسهم وافر فى إيضاح المعنى وتقريره وتوكيده، كما يعد وسيلة تعبيرية محكمة تتولد من خلالها الجمل والعبارات مع ارتباط بعضها ببعض برباط معنوى أقوى من الرباط اللفظى الذى تحدثه الواو.

كما أن الفصل فى شبه كمال الاتصال يسهم بشكل كبير فى إثارة أذهان المخاطبين وإلهاب عواطفهم، واستمالة أسماعهم إلى ما يلقى إليهم وذلك بفضل مايحمله الكلام من إثارة الأسئلة المقدرة، ثم التصريح بالأجوبة المناسبة، "فالجملة الأولى تثير فى النفس خواطر وهواتف فتأتى الثانية مجيبة عن هذه الخوالج، وكأن بذرة الجملة الثانية مضمرة فى الجملة الأولى، وهكذا يتوالد

---

(١) زاد المسير لابن الجوزى، ج٢ ص ١٩٨.

(٢) فتح القدير ج٢ ص ٣٢.

الكلام وتتناسل الجمل، ثم إن فى طى هذه الهواتف وترك الإفصاح عنها، والتعبير الجهير بها، ضربا من وجازة الكلام واختصاره، ودمجه واكتنازه، ولو ذهبت تبسط ما حقه البسط لرأيت وراء كل جملة من هاتيك الضروب جملة قد تطول أو تقصر ولكنها أضمرت فى تلك الجملة، واكتفى فى الإبانة عنها باللمحة الدالة والإيماضة السريعة التى انعكست فى تحريك السامع واستثارة حسه"(١).

وقد كثر الفصل لشبه كمال الاتصال فى مقامات المحاورة فى القرآن الكريم ويعلل الإمام لذلك فيقول: "واعلم أن الذى تراه فى التنزيل من لفظ "قال" مفصولا غير معطوف... جاء على ما يقع فى أنفس المخلوقين من السؤال فلما كان فى العرف والعادة فيما بين المخلوقين إذا قيل لهم: دخل قوم على فلان فقالوا كذا، أن يقولوا: فماذا قال هو؟ ويقول المجيب: قال: كذا، أخرج الكلام ذلك المخرج لأن الناس خوطبوا بما يتعارفونه، وسلك باللفظ معهم المسلك الذى يسلكونه"(٢).

ولا شك فى أن حذف السؤال المقدر فى المحاورة يوفر للنظم الكريم دقة وإيجازا وإحكاما، ويحدث بين أجزاء الكلام ارتباطا داخليا أشد وأقوى من الارتباط الخارجى الذى يحدثه العطف بالواو، يجعل للأسلوب معه من القيم البلاغية والروعة الأدائية ماليس لغيره من الأساليب الأخرى، ويلمح السكاكى (رحمه الله) هذا المعنى المبدع فى السؤال المقدر فى المحاورة فيقول: "وتنزيل السؤال بالفحوى منزلة الواقع لايصار إليه إلا لجهات لطيفة، إما لتنبيه السامع

(١) دلالات التراكيب د/ محمد أبو موسى، ص ٣١٢ مكتبة وهبة، ط الثانية ١٤٠٨هـ/ ١٩٧٨م.

(٢) دلائل الإعجاز، ص ٢٠٤.

على موقعه أو لإغنائه أن يسأل أو لئلا يسمع منه شئ، أو لئلا ينقطع كلامك بكلامه أو للقصد إلى تكثير المعنى بتقليل اللفظ، وهو تقدير السؤال وترك العطف أو غير ذلك مما ينخرط فى هذا السلك"(١).

وابن الشجرى له رأى خاص فى كل ما جاء من المقاولات حيث ذكر أن الأصل هو دخول الفاء وما لم يأت فيه بالفاء فعلى إرادتها"(٢).

ويسلم الطاهر ابن عاشور بذلك فيعلل لحذف العاطف فيقول: "وإنما حذفوا العاطف فى أمثاله كراهية تكرار العاطف بتكرير أفعال القول، فإن المحاورة تقتضى الإعادة فى الغالب فطردوا الباب فحذفوا العاطف فى الجميع وهو كثير فى التنزيل وربما عطفوا ذلك بالفاء لنكتة تقتضى مخالفة الاستعمال وإن كان العطف بالفاء هو الظاهر والأصل، وهذا مما لم أسبق إلى كشفه من أساليب الاستعمال العربى"(٣).

ولا حاجة لتقدير "فاء" أو غيرها فالأمر كما قال أبو حيان: "الجملة المفتتحة بالقول إذا كان مرتبا بعضها على بعض فى المعنى فالأصح فى لسان العرب أنها لايؤتى فيها بحرف ترتيب، اكتفاء بالترتيب المعنوى"(٤).

وجملة "لأقتلنك" جاءت مؤكدة أتم تأكيد فاللام موطئة للقسم، والتقدير: والله لأقتلنك وتأتى معها نون التوكيد، قال سيبويه:" إذا حلفت على فعل غير منفى لم

---

(١) مفتاح العلوم، السكاكى ص ٢٠٢ ومابعدها ت٠أ/ نعيم زرزور، دار الكتب العلمية بيروت، ط أولى ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٣م.

(٢) الأمالى الشجرية، ابن الشجرى، ج١ ص ٣٧١.

(٣) التحرير والتنوير، ج٢ ص ٤٠١.

(٤) البحر المحيط، ج١ ص ١٤٩.

يقع لزمته اللام، ولزمت اللام النون الخفيفة أو الثقيلة فـــى آخـــــــر كلمـــة"(١).

وإنما تلزم "النون" اللام"فى اليمين لتجعله للاستقبال لتفرق بينه وبين الحال"(٢).

والتوكيد هنا ليس ناظرا للمخاطب فالمخاطب خالى الذهن بل لم يرد على ذهنه هذا التهديد على سبيل الفرض لأنه لم يفعل شيئا يستحق أدنى المؤاخذة !.

إن التوكيد ناظر إلى حال المتكلم ذاته فالكلام قطعة من نفس صاحبه ونحن أمام نفس حاقدة معاندة قد تملكها الحسد من كل جانب فخرج الكلام مؤكدا ليترجم إصراره وتصميمه على قتل أخيه حسدا وحقدا وكرها.

والتأكيد ــ أيضا ــ ناظر إلى غرابة الخبر فى ذاته، فالتهديد بالقتل فى منتهى الغرابة، فهو رد فعل غير متوقع فماذا فعل الأخ ليقتل؟!.

إن الذى قبل والذى رد هو الله (ﷻ) فأخرج وعيده مؤكدا لأنه لا حجة له فيما قال ولا سبب له فيما قال فاحتشد فى وعيده كالكاذب الذى لا يملك إلا الحلف بأغلظ الأيمان للتدليل على صدقه، ومما يعضد ذلك أنه أقسم على قتل أخيه"دون أن يعلل هذا القرار بأى تعليل ولو كان تضليلا أو مغالطة عقلية"(٣).

وهذه الجملة تدل على أن الباطل لا منطق له، ولاحجة تدعمه، ولذلك فسلاح أهل الباطل هو دوما البطش، والقتل والطغيان دفاعا عن مواقفهم

---

(١) الكتاب، ج٣ ص ١٠٤.

(٢) شرح الرضى على الكافية، ج٤ ص ٣١٢٠ ت٠د/يوسف حسن عمر، منشورات جامعة قاريونس، بنغازى، بدون.

(٣) أسلوب الحوار فى القرآن الكريم، د/ عبد الحليم حفنى، ص ١٠٨٠، الهيئـــة المـــصرية العامة للكتاب، ط الثانية، بدون.

الهزيلة، ومجئ ذلك من ولد آدم فيه دلالة على تأصيل ذلك وأن الخير والشر فى تصارع دائم، وأن هذا من سنن الله فى خلقه.

وهذه الجملة التى لم ينطق القاتل غيرها "لأقتلنك" جعلت المتلقى فى قمة التلهف والشوق لمعرفة ما ستئول إليه الأحداث، وكيف ستكون ردود الأفعال فتنقطع أنفاسه، ولا يتحسس الراحة حتى يأتى على القصة بكمالها، فهذه الجملة، فجرت الموقف وأثارت الأحداث وألهبت الأوتار وأنطقت الأخ المقتول "هابيل" كما حكى القرآن الكريم:

﴿ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ المائدة: ٢٧.

﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ المائدة: ٢٨.

﴿ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ المائدة: ٢٩.

وهذه الآيات المتواليات التى جاءت على لسان هابيل تمثل الأسلوب الأمثل لمعالجة النفوس المريضة واجتثاث أدران المعاصى وآثارها؛ إذ جاءت الآيات بالترغيب والترهيب وبدئ بالترغيب فتحا لأقفال قلبه واستمالة لنفسه والمتمثل فى قوله: :" إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ۝ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ " ففى ذلك استمالة وإحراج له فتعلوه حمرة الخجل فيرعوى وينصرف عما عزم عليه ولكن أنى له ذلك؟!.

ويبدأ الترهيب مع قوله تعالى: " إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ".

وذلك المنهج فى الدعوة الجامع بين الترغيب والترهيب هو الأمثل فى تربية الشخصية الإنسانية إن أحسنت التلقى والفهم "فالنفس الإنسانية هى مستقر لأشتات من النوازع والأهواء وعديد من الأشواق الروحية، والحاجات المادية، وهذا الحشد المتعارض المركوز فى فطرتها جعل منها ميدانا لمعركة دائمة محتومة والسلوك الإنسانى هو مظهر لنتائج تلك المعركة النفسية"(١).

وهنا يأتى دور الترغيب والترهيب لزرع دواعى الخير فى النفس ومعالجة نوازع الشر فيها خاصة أن النفس ــ كما يقول أبو الفرج ابن الجوزى: "كالماء الجارى فإنه يطلب الهبوط، وإنما دفعه إلى فوق يحتاج إلى التكلف ولهذا أجاب معاون الشرع بالترغيب والترهيب ليقوى جند العقل"(٢).

وهذا ما تم التعامل به مع أسوأ النفوس وأخبثها حيث استقبل هذا التهديد بهذه الجملة الحانية: "إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ"

وقد جاءت مفصولة عما قبلها لما بينهما من رباط معنوى قوى هو شبه كمال الاتصال فكأن سائلا سأل فماذا أجاب الأخ قيل: "قال: **إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ**، وقد سبق بيان براعة وبلاغة الفصل فى المحاورات(٣).

ويرى السيوطي أن فى الأسلوب حذفا والتقدير قال: لم تقتلنى؟ قال: لتقبل قربانك دونى قال: إنما يتقبل الله من المتقين"(٤).

---

(١) أسلوب الدعوة القرآنية: بلاغة ومنهاجا د/ عبد الغنى بركة، ص ٣٣٤، مكتبة وهبة، ط أولى، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

(٢) صيد الخاطر، أبو الفرج ابن الجوزى، ص ١٢ ت٠د/ السيد محمد السيد وآخرون، دار الحديث القاهرة، ط الثانية ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.

(٣) ينظر: ص ٨٤ من هذا البحث.

(٤) ينظر: قطف الأزهار فى كشف الأسرار، ج٢ ص ٨٠٣.

وهذه التقديرات التى تلمح فى ثنايا الأسلوب تطوى وصولا إلى بؤرة القصد ومحط الاهتمام وفيها أيضا تنشيط لعقل المتلقى فيتشارك فى قراءة خيوط الأحداث، فيعيش الحدث وهذا أدعى للتذكر والتدبر، وهذا التصرف الأسلوبى جار على طبع اللغة وبلاغتها، والتى من شأنها "أن تسقط من الألفاظ ما يدل عليه غيره أو ما يرشد إليه سياق الكلام ودلالة الحال وأصل بلاغتها فى هذه الوجازة التى تعتمد على ذكاء القارئ والسامع وتعول على إثارة حسه وبعث خياله وتنشيط نفسه حتى يفهم بالقرينة، ويدرك باللمحه ويفطن إلى معانى الألفاظ التى طواها التعبير"(١).

وقد جاءت "إنما" لتدل على قصر صفة هى قبول الأعمال على موصوف هو "المتقين" قصرا حقيقيا تحقيقيا، فالله (ﷻ) لا يتقبل إلا الأعمال الصادرة ممن اتسم بالتقوى، فهذا القصر مطابق للواقع، وقد أخذ الطاهر ابن عاشور يسوغ ذلك ظنا منه أن الواقع لا يؤيد هذا المعنى فقال: "وقد أفاد قول ابن آدم حصر القبول فى أعمال المتقين فإذا كان المراد من المتقين معناه المعروف شرعا المحكى بلفظه الدال عليه مراد ابن آدم،كان مفاد الحصر أن عمل غير المتقى لا يقبل، فيحتمل أن هذا كان فى شريعتهم ثم نسخ فى الإسلام بقبول الحسنات من المؤمن وإن لم يكن متقيا فى سائر أحواله، ويحتمل أن يراد بالمتقين المخلصون فى العمل، فيكون عدم القبول أمارة على عدم الإخلاص وفيه إخراج لفظ التقوى عن المتعارف ويحتمل أن يريد بالتقبل تقبلا خاصا وهو التقبل التام الدال عليه

(١) خصائص التراكيب د/ محمد أبو موسى ص ١٥٣.

احتراق القربان... ويحتمل أن يراد المتقين بالقربان أى المريدين به تقوى الله"([1]).

وكلام الطاهر يجعلنا نعرج على معنى التقوى أولا فهى جعل النفس فى وقاية مما يخاف([2])، وتأسيسا على ذلك فتقوى الله أن تجعل بينك وبين كل ما يغضب الله وقاية من عمل الطاعات واجتناب المنهيات، فيدخل فيها معنى الإيمان والإخلاص والاتباع، فليس هناك حاجة إلى القول بأن هذا كان فى شريعتهم، ونسخ فى الإسلام، فالله لا يتقبل من الأعمال إلا ما كان خالصا، ولا يتحقق إخلاص بدون تقوى، وتأويل معنى القبول إلى قبول تام ونحوه تكلف محض، وجعل الآية خاصة بتقبل المتقين بالقربان أمر لا دليل عليه، وفيه تضييق للمعنى وإضاعة له، ولا حاجة إلى كل ذلك فالله لا يتقبل إلا من المتقين وقد عاش الصحابة هذا المعنى فاهتموا بقبول أعمالهم وكان منية حياتهم، فهذا على بن أبى طالب (ﷺ) يقول: "لاتهتموا لقلة العمل واهتموا للقبول" إن الله يقول: ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ المائدة: ٢٧ ([3]).

فالحصر المستفاد من "إنما" معمول به عند الصحابة، ولم يفهم أحد من السابقين أو اللاحقين المعنى إلا على الحصر.

والملاحظ أن أسلوب القصر هنا قد سلك طريق "إنما" دون النفى والاستثناء أو أى طريق آخر من الطرق التى كان من الممكن أن يؤدى بها المعنى، وذلك راجع لما لهذا الطريق، من سمات وخصوصيات دقيقة تجعله ينفرد من بين

---

(١) التحرير والتنوير، ج٦ ص ١٧٠.

(٢) المفردات فى غريب القرآن، ص ٥٤٥.

(٣) تفسير القرآن العظيم ابن كثير، ج٣ ص ٦٣.

طرق القصر بالدخول على معان خاصة فـــ "إنما" "تدخل على معان مأنوسة قريبة من النفوس، فلا تدخل على الحقائق الغريبة والأفكار البعيدة، فـــ "إنما" أداة رقيقة هامسة، لاتنزعج النفوس لما دخلت عليه، ولاترفض ماجاء فى وعائها"(١).

ولذلك فـــ "إنما" تأتى فى الأخبار التى يدعى أنها من الوضوح بمكان فلا يجهلها المخاطب ولا يدفع صحتها، أو لما ينزل هذه المنزلة(٢).

فالإتيان بـــ "إنما" ونسجها فى بناء الجملة يدل على أن قبول الله (ﷻ) لأعمال المتقين أمر واضح معلوم ينبغى ألا ينكر ولا يجحد.

وفى الأسلوب تعريض(٣) بحال أخيه إذ نبهه على السبب فى عدم تقبل قربانه، وهو أنه لايتمتع بصفات المتقين فليس داخلا فى زمرتهم فالأولى به أن يفتش فى نفسه ويصلح حاله، والتعريض من المواقع التى تأتى فيها "إنما" يقول الإمام:" ثم اعلم أنك إذا استقريت وجدتها أقوى ما تكون وأعلق ما ترى بالقلب إذا كان لا يراد بالكلام بعدها نفس معناه ولكن التعريض بأمر هو مقتضاه"(٤).

والعجب فى التعريض بـــ "إنما" كما يقول الإمام: "أن هذا التعريض الذى ذكرت لك لا يحصل من دون "إنما" إذا سقطت من الجملة، والسبب فى ذلك أن

---

(١) دلالات التراكيب، د/ محمد أبو موسى ص ١٤٨.

(٢) دلائل الإعجاز ص ٣٣٠ وما بعدها.

(٣) ينظر: الإيضاح، ج٥ ص ١٧٥ والمثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر لابـــن الأثيـــر، ج٣ ص ٥٦٠ ت. د/ أحمد الحوفى ود/ بدوى طبانة، دار نهضة مصر، القاهرة، بدون.

(٤) دلائل الإعجاز، ص ٢٧٩.

هذا التعريض إنما وقع بأن كان من شأن "إنما" أن تضمن الكلام معنى النفى من بعد الإثبات(١).

فإذا قيل: " يتقبل الله من المتقين " كان مجرد إثبات قبول الله لأعمال المتقين، ولم يكن هناك نفى للقبول من غير المتقين، ومحال أن يقع تعريض لشئ ليس له فى الكلام ذكر ولا فيه دليل عليه.

وإذا كان التعريض من مواقع" إنما "فإن السياق يفجر لنا تلك الدلالات التعريضية فالجمل قبلها التى دلت على تقديم القربان وقبول القربان من هابيل ورفض قربان قابيل ساعدت على إذكاء معنى التعريض المستفاد من أسلوب القصر، فالسياق"مصدر الدلالة فى التعريض، تخرج خيوطها من خلاله ومن بين ثناياه، وتتجمع لتلتقى ثم تطل علينا من العبارة التعريضية، بوجه مقنع غير سافر"(٢).

ولا شك أن التعريض مناسب أتم المناسبة هنا إذ فيه ملاينة فى الخطاب، وإيصال المعنى من خلاله دون مجابهة خشنة مع أخيه "فالتعريض يساعد منشئ الكلام على إعلام السامع بما يريد على صورة لا تقتضى مواجهته بالخطاب وذلك فى مواطن معينة، وأوقات مخصوصة ومواضع يعرفها البليغ"(٣).

---

(١)دلائل الإعجاز، ص ٢٨.

(٢) التعريض فى القرآن الكريم، د/ إبراهيم الخولى، ص ١٠٣، دار البصائر، ط أولى ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م

(٣) الكناية مفهومها وقيمتها البلاغية، د/ محمود شاكر القطان، ص٢٢٥٠ مطابع الأهرام، ط ١٩٩٣م٠

فالتعريض هنا "وسيلة ناجحة يستخدمها العالم البليغ فى تقويم من تأخذهم العزة بالإثم إذا أمروا بمعروف أو نهوا عن منكر"(١).

فالأخ شفيق ليس على حياة أخيه فحسب وإنما حريص على مشاعره، حريص على ألا يجرحه بكلمة والآخر حريص على قتله فشتان ما بينهما.

ولذلك فهذا الأسلوب يشى بأسلوب بديعى آخر هو أسلوب الحكيم(٢)؛ فإن هابيل قد رد على هذا التهديد "لأقتلنك" بقوله: ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ كما حكى القرآن الكريم، إن الطبيعى أن يرد عليه فيقول مثلا: ولم تقتلنى؟ ماذا صنعت لك؟ لكن خير ابنى آدم تجاوز كل ذلك وتلقى أخاه برد لم يكن يترقبه ولكنه أجابه بما هو مهم له وما يجب أن يهتم به وفى هذا الأسلوب "شئ من المفاجأة، وفيه أيضا شئ من الحكمة والتنبيه اللطيف على أن الأولى بمثل المخاطب أن يكون هذا المعنى مراده لا ماذكره"(٣).

فهذا الرد ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ لخص فيه الداء ووضع فيه الدواء، فالداء أنه بعيد عن صفات المتقين، فلذلك لم يتقبل الله منه قربانه والدواء أن يدخل فى زمرتهم فيتقبل الله منه، فأفاد أخاه وأفاد غيره ممن يتسمع إلى ذلك، فقد قرر النظم الحكيم بهذه الجملة الشديدة الأسر الغنية الدلالات ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ قاعدة عامة تجاوزت حدود الزمان والمكان وشملت سائر

---

(١) البيان فى ضوء أساليب القرآن، د/ عبد الفتاح لاشين، ص ٢٨٦، دار المعارف، ط أولى ١٩٨٤م.

(٢) ينظر: الإيضاح، ج٢ ص٩٤.

(٣) خصائص التراكيب، د/ محمد أبو موسى ص ٢٧٠.

الأعمال التى يتقرب بها إلى الله (ﷻ) ليكون المتلقى فى أى زمان ومكان وفى أى عمل على ذكر منها وتدبر.

وهذه الجملة ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ فى غاية الرقة والعذوبة والجمال "إن بعض المتحدثين عن الرقة فى الأسلوب الأدبى يظنونها لا تكون إلا فى وصف الأزهار والرياحين أو فى أحاديث الغزل والحنين أو أبيات الرثاء والتأبين دون أن تتعدى ذلك إلى أساليب الحجاج وبراهين النقاش، وقد فاتهم أن الرقة البيانية منحى إنسانى يصور عواطف التودد ونوازع الملاينة لا فى رسائل الشوق ومواقف العتاب فحسب بل فى كل موقف يجنح إلى الاستمالة العاطفية والإقناع العقلى معا"(١).

وها هو الأخ المغدور يصور القرآن الكريم جداله الهادئ فى آيات سلسة شفافة تمثل أعلى درجات الرقة متخذا من أساليب التودد والاستعطاف، وبراهين الإقناع والإفحام ما يشف عن عاطفة هادئة يستقر ينبوعها الرائق فى صدر صاحبها كما تستقر صفحة الغدير الهادئ، هذه الرقة والعذوبة ما هى إلا انعكاس واضح لتلك النفس المطمئنة الخاشعة التقية مما يدل على قوة الإيمان ورسوخ العقيدة.

والملاحظ على صياغة هذه الجملة مجئ الفعل " يتقبل "دون" يقبل"، وزيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، فالتقبل يدل على كمال الرضا والترقى فى القبول(٢)، وفيها معنى التحبب والتودد، ولذلك جاء الفعل هنا مبنيا للمعلوم نصا

(١) البيان القرآنى، د/ محمد رجب البيومـــــى، ص ٤٣، الـدار المصريـة اللبنانية، ط أولى ١٤٢٦هـــــ / ٢٠٠٥م.

(٢) ينظر:دقائق الفروق اللغوية فى البيان القرآنى، د/ محمد ياسر خضر الدورى، ص٣٢٠ ط ٢٠٠٥م.

على المسند إليه تقوية للإسناد والملابسة وتحديدا للفاعل خاصة أن الآية تتحدث عن قبول الأعمال مناط الثواب والعقاب وما يترتب على ذلك من الحشر إلى الجنة أو السوق للنيران، فالأولى البناء للمعلوم خاصة وأن المسند إليه هنا لفظ الجلالة "الله" وماله من مهابة وجلال وحضور فى نفس المخاطب والمتلقى.

وجاء المفعول فى الجملة محذوفا والتقدير "أعمالهم" أو قربانهم وكل ما جاء من الفعل "تقبل" ومعه "من" لم يذكر معه المفعول وذلك تركيزا على الجهة الصادر منها العمل، فيحذف المفعول حتى لا ينشغل الذهن بغير المقصود.

كما أن فى هذا الحذف إيحاء بأن الله (ﷻ) يقبل من المتقين الأعمال والنيات وحتى العادات فبنياتهم تصير العادة عبادة، فذكر المفعول يطفئ وهج المعانى وزخمها، "فاللطائف بحذف المفعول أكثر وما يظهر بسببه من الحسن والرونق أعجب وأظهر"(١).

فلطائف هذه الجملة ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ متعددة لاتكاد تقطف نكتة وتلمح سرا إلا وتجد نفسك أمام قطاف آخر، وسر غير الذى ذكرت، ولم لا ونظم القرآن الكريم هو الشمس سطوعا والقمر جمالا والسماء رفعة والماء جريانا، والهواء لطفا، والجبال شموخا، والبحار عطاء والرياض حسنا، والورود زهرا وعطرا؟! ويبقى النظم القرآنى فوق كل ذلك وأعمق من كل ذلك، وأين هذه الأوصاف من ذلك الكتاب الذى لا ريب فيه؟ !.

وتتوالد الجمل التى تواجه تلك النفس المظلمة تحاول إنارتها وهى جمل تتوالد وتتناسل ويدخل بعضها فى بعض ويشتد ارتباط بعضها ببعض حتى صار الأمر فيها "أن يحتاج إلى أن تضعها ــ الجمل ــ فى النفس وضعا واحدا

(١) دلائل الإعجاز، ص ١٥٣.

وأن يكون حالك فيها حال البانى يضع بيمينه ها هنا فى حال ما يضع بيساره هناك"([1]).

وماذاك إلا من شدة إحكام الترابط بين الجمل التى جاءت على لسان هابيل، لأنها خرجت من نفسه دفقة واحدة، من أجل دافع واحد، ولذلك لا أستسيغ أن يكون الفصل بين قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ قوله تعالى: ﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ﴾

لكمال الانقطاع مع عدم الإيهام حيث اختلفت الجملتان خبرا وإنشاءً فالجملة الأولى خبرية لفظا ومعنى،وأسلوب القسم إنشائى لفظا ومعنى،وهذا ماأكد عليه أستاذنا الدكتور/ محمد أبو موسى حيث قال:"ولا يجوز عندنا أن يعلل فصلها ــ أى الجملتين المختلفتين خبرا وإنشاء ــ بهذا ــ أى بكمال الانقطاع ــ لأنه تعليل لا يحلل الأسلوب ولا يقف على ما بينه من روابط، فقد يكون الإنشاء توكيدا للخبر أو العكس"([2]).

فمجرد اختلاف الجملتين خبرا وإنشاء لا يعنى الفصل لعدم المناسبة بكمال الانقطاع، بل ينبغى أن يؤول الفصل لسر بلاغى آخر يعين عليه النسق"([3]).

وأرى أن الفصل هنا نازع إلى وجود الجامع المعنوي القوى بين هذه الجمل فهى جمل تداعت فى النفس وخرجت زفرات متوالية، متآخية متناسقة اجتمعت على هدف واحد هو معالجة تلك النفس الحاقدة وإضاءة جنبات ظلماتها

---

(١) دلائل الإعجاز، ص ١١٠.

(٢) دلالات التراكيب، د/ محمد أبو موسى، ص ٣٢٤.

(٣) أسرار الفصل والوصل د/ صبَّاح دراز، ص ٧١٠ مطبعة الأمانة، ط ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

ولذلك لم نر وصلا لفظيا بالواو بين الجمل وبعضها البعض، لأن الاتصال المعنوي قائم بين هذه الجمل.

كما أن هذه الجمل ﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ المائدة: ٢٧ – ٢٩.

بمثابة تأكيد وتدليل على معنى التقوى الذى جاء فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ فتقوى الله هى التى أجرت دم التسامح فى عروقه، وهى الترجمة الحقيقية للخوف من الله (ﷻ) ومن أجل تلك التقوى فليتحمل القاتل إثمه وإثم المقتول فيصير فى جهنم.

فالجمل فى قمة السرد والإحكام متآخية آخذ بعضها بحجز بعض فى اتساق والتئام؛ولأن النفس التى يواجهها النظم نفس جاحدة لا تعرف تلك المعانى الخيرة المتسامحة جاء قوله تعالى: ﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَ ﴾ مصدرا بالقسم، فاللام موطئة للقسم المحذوف أى والله إن بسطت.. "وسميت بذلك لأنها وطأت الجواب للقسم أى مهدت له وأكثر دخولها على "إن" الشرطية، وفائدتها أنها تدل على جملة القسم التى تحذف عند وجود هذه اللام غالبا، وتمهد لجواب القسم وتشعر أن الجواب للقسم لا للشرط (١).

(١) ينظر: أسلوب القسم واجتماعه مع الشرط فـــى رحاب القرآن الكريم، أ/ على أبو القاسم عون، ص ٢٢١٠ منشورات جامعة الفتح، ط ١٩٩٢م.

وحيث إن لغتنا هى لغة الإيجاز فإنه عند اجتماع الشرط والقسم يكتفى بجواب المتقدم منها.

يقول ابن عصفور: "وإذا اجتمع فى هذا الباب القسم مع الشرط، فيبنى الجواب على الأول منهما، وحذف جواب الثانى لدلالة جواب الأول عليه فتقول: "والله إن قام زيد ليقومن عمرو، فتجعل ليقومن جوابا للقسم"(١).

هذا ولم يجتمع الشرط والقسم فى القرآن الكريم إلا إذا كان القسم مقدما، والجواب له وقد سد مسد جواب الشرط، وقد جاء هذا الأسلوب "لئن" فى القرآن الكريم أربعا وستين مرة وكان الجواب للقسم، والسر فى ذلك أن الذى يشترط لأمر ما حريص على تأكيد شرطه بالحلف عليه، فالقسم واقع على مضمون الجملة الشرطية، ومن ثم تقدم القسم على الشرط فى أبلغ الكلام القرآن الكريم(٢).

و"إن" تأتى للشرط فى الاستقبال والأصل فيها الخلو عن الجزم بوقوع الشرط(٣)، فمجئ "إن" هنا مع فعل "البسط" يدل على أن امتداد يد القاتل لأخيه بالقتل أمر مشكوك فيه وغير مقطوع بوقوعه وهذا يتنافى مع إصراره وتأكيده على ذلك فى قوله "لأقتلنك"، فـ "إن" هنا دخلت على المقطوع به، وهذا قمة البلاغة وروعة البيان إذ فى استخدام "إن" هنا مجاراة للأخ ومداراة له،

---

(١) شرح جمل الزجاجي لابن عصفور ج١ ص ٥٢٩٠ت٠أ/ فواز السكار٠ دار الكتب العلمية، ط١ ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م.

(٢) ينظر: أسلوب القسم فى ضوء استعمالاته فى القرآن الكريم، د/ أحمد عبد العزيز عبد الله، ص ١٨٠ ومابعدها، دار الطباعة المحمدية، ط أولى ١٤٠٨هـ/ ١٩٩٩م.

(٣) ينظر: مفتاح العلوم، ص ٢٤٠ والإيضاح، ج٢ ص ١١٦.

ومساهلة معه واقتراب منه، فقد حمل كلامه على الشك وأن ذلك مما ينبغى ألا يكون منه، و هذا من مواقع دخول "إن" على الشرط المقطوع به يقول الخطيب: "وقد تستعمل "إن" فى مقام القطع بوقوع الشرط لنكتة كالتجاهل لاستدعاء المقام إياه"(١).

فقد تجاهل وعيد أخيه فبنى كلامه على الافتراض كأنه غير مصدق لما قاله وأن وعيده ليس على سبيل الجزم والتحقيق، كل ذلك ليفتح مغاليق قلبه وليوقظ شيئا من حمرة خجله إن بقى لديه شئ منها.

وقد جاء فعل الشرط "بسط" ماضيا لفظا لا معنى "لأن الشرط والجزاء لايتعلقان إلا بالمستقبل، وللنحاة فيه تقديران: أحدهما أن الفعل ذو تغير فى اللفظ فغير لفظ المضارع إلى الماضى تنزيلا له منزلة المحقق، والثانى: أنه ذو تغير فى المعنى، وأن حرف الشرط لما دخل عليه قلب معناه إلى الاستقبال، وبقى لفظه على حاله، والتقدير الأول أفقه فى العربية لموافقته تصرف العرب فى إقامتها الماضى مقام المستقبل، وتنزيلها المنتظر منزلة الواقع المتيقن"(٢).

فقد جاء الفعل هنا ماضيا ليزكى سماحة الأخ المقتول، فعلى فرض تيقن البسط، ووقوعه من أخيه فلن يقابل الإساءة بالإساءة بل سيرسم بدمائه وردة يهديها إلى أخيه.

---

(١) الإيضاح، ج٢ ص ١١٩.

(٢) بدائع الفوائد ابن القيم، ج١ ص ٥١ ومابعده، ت٠ أ/ سيد عمران وآخرون، دار الحديث القاهرة، ط ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

وقد كان من الممكن أن يأتى فعل البسط بدون هذا القيد "إلى" فيقال مثلا: لئن بسطت يدك لتقتلنى "لكن كان مجئ هذا الجار والمجرور "إليَّ" فى قمة السمو التعبيرى ذاك أن حرف الجر "إلىَّ" يكون لمنتهى الغاية(١).

فدلت على أن منتهى غاية أخيه وتوجهه وقصده وهدفه هو قتله كما أن فى هذا القيد تشنيعاً عليه وتسجيلا لأقبح المفاسد التى قد ترتكب.

كما أن مجئ هذا القيد "إلى" وزحزحته عن مكانه أعطى الكثير من المعانى واللطائف.

فتقديم الجار والمجرور "إلىَّ" على المفعول الصريح" إيذانا من أول الأمر برجوع ضرر البسط وغائلته إليه"(٢).

ويضيف الألوسى (رحمه الله) لطيفه أخرى فيقول: "ويخطر لى أنه قدم لتعجيل تذكيره بنفسه المنجر إلى تذكيره بالأخوة المانعة عن القتل"(٣).

فقد قدم الجار والمجرور لأنه الأوثق بغرض الكلام وسياقه، فقد أعطتنا تلك الزحزحة كثيرا من المعاني وكشفت عن شيات نفسية تحتدم فى نفس الأخ المقتول، لقد وشى هذا التقديم بمدى الصدمة النفسية التى أصابته وكيف أنه يعظم ذلك الأمر ويهوله، فكل هذه المعانى أفادها ذلك التقديم كما أفاد القصر أيضا فالبسط لن يكون إلا لأخيه.

فتقديم كلمة على كلمة لا يجرى هكذا فى الكلام البليغ فضلا عن القرآن الكريم، بل هو "يجرى على نسق دقيق من مراقبة المعانى، ومتابعة الأحوال،

---

(١) ينظر: حروف المعانى، الزجاجى ص ٦٥٠ت،د/على توفيق الحمد، مؤسسة الرسالة ط الثانيـــــة ١٤٠٦هـــ،

(٢) تفسير أبى السعود، ج٣ ص ٢٧.

(٣) روح المعانى، ج٦ ص ١١٣.

وهو متشعب النواحى، متعدد الأصول، فهم يقدمون من المتعلقات ما هو أوثق بغرض الكلام وسياقه"(١).

ويرى الزركشى ــ عليه رحمة الله ــ فى تلك الزحزحات وجها من الوجوه الإعجازية للقرآن الكريم فيقول: "ووجه إعجازه أن الله قد أحاط بكل شئ علماً وأحاط بالكلام كله علما فإذا ترتبت اللفظة من القرآن علم بإحاطته أى لفظة تصلح أن تلى الأولى، ويتبين المعنى بعد المعنى ثم كذلك من أول القرآن إلى آخره والبشر معهم الجهل والنسيان والذهول ومعلوم بالضرورة أن أحدا من البشر لا يحيط بذلك، ولهذا جاء نظم القرآن فى الغاية القصوى من الفصاحة"(٢).

وبسط اليد يأتى فى القرآن الكريم كناية عن الجود والكرم كما فى قوله تعالى: ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ المائدة: ٦٤، ويأتى كناية عن الإسراف كما فى قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ الإسراء: ٢٩.

وهو هنا كناية عن القتل فالسياق هو الذى يحدد مدلول وعطاء التركيب، والكناية عن القتل ببسط اليد دون التعبير الصريح "لئن قتلتنى "لأن التعبير الكنائى قد جعل الأخ يرى صورة اعتدائه وقد مـــد يـــده بالاعتداء، فالتعبير هنا أبلغ وأمس بشغاف النفوس فلعله بذلك يرتدع وينزجر ولأن الأمر أمر قتل لم يكتف فى تحديد الدلالة من مفهوم السياق بل نص عليها فى قوله: "لتقتلنى" فسبب بسط اليد لن يكون بالعطاء ونحوه وإنما لإسالة الدم وفى هذا تشنيع عليه

(١) خصائص التراكيب، د/ محمد أبو موسى، ص ٣٦٧.
(٢) البرهان، ج١ ص ٩٧.

ومجئ فعل القتل مضارعا استحضارا لصورة القتل أمام أعين الأخ وأمام المتلقى وذلك أدعى لتنفيره.

وهــذه الجملة شوقت لمعرفة جملة الجواب إذ يتطلع المخاطب عند سماع الجملة الأولى إلى معرفة الجواب فيظل مترقبا له حتى يقف عليه فيتمكن فى ذهنه وجملة الشرط "بسطت إلى يدك لتقتلنى" لو فكر المتلقى فيها لظن أن الجواب لن يخرج عن مثل " لأقطعن يدك "أو" لأقتلنك" أو أى معنى من هذا القبيل، وعندما تأتى جملة "ما أنا بباسط.." يتلقاها العقل بمزيد من التفكر والتدبر والتأثير والتأثر، فالمعنى غريب عن دنيا البشر.

وجملة "ما أنا بباسط يدى إليك لأقتلك" جملة جواب القسم التى سدت مسد جملة جواب الشرط لأن الجملة لو كانت جوابا للشرط للزمتها الفاء لكونها منفية بـــ "ما" والأداة جازمة"(١).

وهذه الجملة هى محط التأكيد وهى التى يراد تقرير مضمونها، فيحصل يقين للمحلوف له بمضمون الجواب فهى المقسم عليه ويراد بالقسم تحقيقه وتوكيده فالغرض من القسم توكيد ما يقسم عليه من نفى وإثبات(٢).

والشرط يحتاج إلى هذا التأكيد "لأن الغرض من أسلوب الشرط على عمومه التعليق الذى يحوطه الشك فى أغلب الأحيان لأن السبب قد يقع وقد لا

---

(١) ينظر: شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، ج٤ ص ٢٧١، ومابعدها ت٢٠د/ محمد عبــد المنعم خفاجى، مكتبة الإيمان، المنصورة، بدون، والدرر المصون فــى علــوم الكتــاب المكنون، السمين الحلبى، ج٤ ص ٢٤١.

(٢) ينظر: شرح المفصل لابن يعيش، ج٩ ص ٩٠ بدون، والتبيان فى أقسام القــرآن لابــن القيم، ص٣ ط مكتبة الأنصار المحمدية، بدون.

يقع فهو موسوم بالاحتمالية التى لا تفارقه لذلك جئ بالقسم لإزالة ذلك الشك ورفع تلك الاحتمالية"(١).

وتزداد الحاجة إلى التأكيد إذا كان المعنى غريبا لا يتصوره المحلوف له ولايرد على ذهنه كما هو الحال هنا فتلك السماحة التى بلغت إلى الجود بالنفس لا يتصورها هذا الأخ الحاقد.

ولذلك دخلت المؤكدات من كل حدب وصوب على هذا الجواب.

فـــ "ما" الدالة على نفى الحال، تدخل على الاسم والفعل غير أن طلبها الاسم أكثر من طلبها الفعل(٢)، فمجئ "ما" هنا مناسب تمام المناسبة.

يقول سيبويه: "وأما "ما" فهى نفى لقوله: هو يفعل إذا كان فى حال الفعل"(٣).

والكلام هنا عن الحال ففى حالة حدوث بسط لن يكون منه فى تلك اللحظة بسط ونفى وقوع البسط منه فى هذه الحال أدعى لنفيه عنه فى غيرها.

وقد تسلط هذا النفى على المسند إليه المقدم على الخبر المشتق" باسط"،" وقد ذهب البعض إلى أن هذا الأسلوب مثل الخبر الفعلى فى إفادة الاختصاص، وذهب آخرون إلى أنه ليس كذلك، والأولى مراعاة السياق فـــهو ذو أثر فعال فى تحديد هـــــذه الدلالات"(٤).

وإذا نظرنا إلى الجملة التى معنا: ﴿ مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ﴾

---

(١) أسلوب القسم واجتماعه مع الشرط فى رحاب القرآن الكريم، أ/ على أبو القاسم عـــون، ص ٢٤٤.

(٢) ينظر: أساليب النفى فى القرآن الكريم، د/ أحمد ماهر البقرى، ص ٨٣ ومابعـــدها، دار الناشر الجامعى، الإسكندرية ط ١٩٨٠م.

(٣) الكتاب، ج٤ ص ٢٢١.

(٤) خصائص التراكيب، د/ محمد أبو موسى، ص ٢٣٣.

نرى أن تقديم المسند إليه "أنا" على الخبر المشتق "بباسط" ليس يفيد القصر، يقول عبد القاهر: " إذا قلت: ما فعلت كنت نفيت عنك فعلا لم يثبت أنه مفعول، وإذا قلت: ما أنا فعلت كنت نفيت عنك فعلا ثبت أنه مفعول"(١).

ففعل البسط بالرغم من ثبوت وقوعه من أخيه إلا أنه ينفي بآكد الأساليب أن يرد على البسط بالبسط.

ومن أجل هذا التوكيد جاءت الجملة اسمية لتفيد ثبوت ودوام النفى فالجملة الاسمية تفيد الثبوت والدوام نفيا وإثباتا وبين الإمام كيف أفادت الجملة الاسمية ذلك فيقول: "أنه لا يؤتى بالاسم معرى من العوامل إلا لحديث قد نوى إسناده إليه، وإذا كان كذلك، فإذا قلت: عبد الله "فقد أشعرت قلبه بذلك أنك قد أردت الحديث عنه، فإذا جئت بالحديث، فقلت مثلا: قام أوقلت: خرج أو قلت: قدم، فقد علم ما جئت به، وقد وطأت له وقدمت الإعلام فيه فدخل على القلب دخول المأنوس به، وقبله قبول المهيئ له المطمئن إليه، وذلك لا محالة أشد لثبوته، وأنفى للشبهة وأمنع للشك وأدخل فى التحقيق"(٢).

وهــذا المعنى ينطبق على الجملة الاسمية المنفية التى نحن بصددها فدخول النفى على الضمير المتصدر "أنا" دل على أن هناك معنى يراد نفيه عنه فإذا جاء قوله "بباسط يدى إليك لأقتلك" دخل وقد وطأت القلب والعقل لقبول هذا المعنى فيكون أشد تأكيدا ورسوخا فى الذهن والنفس، وهذا المعنى يقرره الإمام أبو السعود العمادى فيقول: " فإن الجملة الاسمية الإيجابية كما تدل بمعرفة المقام على دوام الثبوت كذلك السلبية تدل بمعونته على دوام الانتفاء"(٣).

---

(١) دلائل الإعجاز، ص ٨٣ وما بعدها.

(٢) دلائل الإعجاز، ص ١٣٢.

(٣) تفسير أبى السعود، ج٣ ص ٢٧.

وفى سبيل التأكيد على نفى البسط جاءت الباء لتكون رافدا من روافد تغذية الجملة بكل معانى التأكيد نفيا لهذا الأمر الذى يتبرأ منه هابيل.

ونلمح إفادة الباء للتأكيد من خلال المعنى الدلالى لهذا الحرف، والباء تأتى لأربعة عشر معنى أولها الإلصاق، وهو معنى لا يفارقها فلهذا اقتصر عليه سيبويه"(١).

وإذا وظفنا معنى الإلصاق وما يفيده من دلالة على المصاحبة والالتحام، فإن "الباء" أفادت أن نفى البسط عن المسند إليه "أنا" ملازم له لم ولن ينفك عنه بأى حال من الأحوال "وهكذا تبرز أهمية الحرف ودوره فى إبراز المقاصد والأغراض، وتتوقف دلالات النظم وأسراره على إدراك مرامى الحرف والتسمع لوسوسته"(٢).

وتأكيدا على نفى وقوع القتل منه جاء التعبير على هذا النحو: "ما أنا بباسط" للتبرى من مقدمات القتل فضلا عنه.

وكل هذا التأكيد ليس ناظرا للمخاطب سواء أكان منكرا أم مترددا، بل ناظر إلى عظمة هذا الخبر وغرابته" وتوكيد الخبر فى العربية عامة، وفى القرآن الكريم خاصة ليس بمنحصر فى حال السامع إنكارا أو ترددا، فليس هذا بالباعث والمقتضى الأوحد، بل ربما كان أقلهم حضورا فى البيان القرآنى، ولعل حال المعنى المؤكد نفسه هو الباعث والمقتضى للتوكيد، فحين يكون المتحدث عنه، وفيه أمرا مهما يكون من حقه أن يقرر فى القلوب، وأن يؤكد ليبقى المرء منه على ذكر من جهة، وليقوم فيه الوعى بعظيم قدر ما أكد"(٣).

---

(١) مغنى اللبيب، لابن هشام، ج١ ص ٩٥.

(٢) من أسرار حروف الجر فى الذكر الحكيم، د/ محمد الأمين الخضرى، ص ٧.

(٣) سبل الاستنباط من القرآن الكريم والسنة، د/ محمود توفيق سعد، ص ٦٩٠.

فالتوكيد هنا ناظر إلى معنى الخبر وإلى حال المتكلم وإحساسه بعمق هذا المعنى فى نفسه وسيطرته على خلجات شعوره.

وجاء ترتيب الكلمات على أروع ما يكون فقد جاء هذا القيد "إليك" بعد المفعول "يرى" خلافا لنسق جملة الشرط لأن المفعول هنا أوثق بغرض الكلام، فمنتهى بغيته أن ينفى عنه البسط فقدم ما هو أوثق غرضا بذلك وهو يديه مسارعة منه فى نفى البسط عنه فتعامل مع بسط يديه كأنه تهمة يجتهد فى تبرئة ساحته منها.

وجاء قوله "لأقتلك" ليحدد المعنى المدلول عليه بطريق الكناية فى جملة الجواب فنفى بسط اليد كناية عن نفى القتل، إلا أن الأمر لما كان من الخطورة بمكان نص على ذكره تصريحا فقال: "لأقتلك".

وللعلماء وقفة مع ما أفادته جملة الجواب من معانى الوداعة والمسامحة، إذ قالوا: لم لم يدفع المقتول عن نفسه مع أن الدفع عن النفس واجب؟ وخرجوا ذلك على تخريجات منها:

١ــ أن الاستسلام جائز، وهكذا فعل عثمان (رضي الله عنه) وقال النبى (ﷺ) لمحمد بن مسلمة: "ألق كمك على وجهك وكن عبد الله المقتول ولاتكن عبد الله القاتل".

٢ــ أن الذى منعه من الدفع التحرج والورع، وهذا اجتهاد من هابيل فى استعظام حرمة قتل النفس.

٣ــ يحتمل أن يقال: لاح للمقتول بأمارات تغلب على الظن أنه يريد قتله، فذكر له هذا الكلام على سبيل الوعظ والنصيحة، يعنى أنا لا أجوز من نفسى أن أبدأك بالقتل ولا أفعله خوفا من الله تعالى، وإنما ذكر له هذا الكلام قبل إقدام القاتل على قتله وكان غرضه منه تقبيح القتل العمد فى قلبه.

٤ــ وجوب الدفع عن النفس أمر يجوز أن يختلف باختلاف الشرائع وقال مجاهد: إن الدفع عن النفس ما كان مباحا فى ذلك الوقت.

٥ــ أن المذكور فى الآية يعنى لا أبسط يدى إليك لغرض الدفع وقال أهل العلم: الدافع عن نفسه يجب عليه أن يدفع بالأيسر فالأيسر وليس له أن يقصد القتل بل يجب عليه أن يقصد الدفع(١).

وهذا الوجه هو المقبول فليس فى الجواب دليل على أنه ترك نفسه ليقتل، فالآية لم تقل هذا من قريب ولا من بعيد، ولذلك كان قوله "لأقتلك" احتراسا(٢). واقعا موقعه فقد نفى بسط اليد لقتله فقط ليبقى بسط اليد ليدافع عن نفسه مع حرصه على حياة الآخر، فهو يتبرأ من شئ واحد فقط هو بسط يديه لقتله، وهذا المعنى نجده فى قول النبى (ﷺ) "إذا تواجه المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار، قالوا: يارسول الله: هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: إنه كان حريصا على قتل صاحبه"(٣).

فهابيل ينفى عن نفسه بسط اليد لأخيه بالقتل وما يتبع ذلك من الحرص على قتله، فهو ليس صاحبا فحسب بل هو أخوه من لحمه ودمه وهذا أدعى لأن يكون حريصا على سلامته.

---

(١) ينظر: جامع البيان، الطبرى، ج٥ ص ١٢٣ ومابعدها، ومفاتيح الغيب، ج١١ ص ٢١١ ومابعدها، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير، ج٣ ص ٩٢ ومابعدها، والجامع لأحكام القرآن، القرطبى، ج٣ ص ٢١٣٣، والتحرير والتنوير، ج٦ ص ١٧١.

(٢) ينظر: الإيضاح، ج٣ ص ٢٠٨.

(٣) الحديث فى صحيح البخارى، ج٤ ص ٤٢٠ رقم ٦٤٢٥، ت٠د/ مصطفى ديب البغـــا، دار ابن كثير، بيروت ط الثالثة، بدون.

ولذلك كان الشهاب الخفاجى موفقا فى قوله: "والنفى فيه للقيد يعنى إن بسطتها فللدفع لا للقتل وإن احتمل ترتبه عليه"(١).

وبين قولـــه: (**بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي**)، وجمل الجواب "**مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ**" مقابلة بديعة"(٢).

وضحت وميزت حال الأخوين، وبينت بعد ما بينهما،وهذا أدعى للتأثر، لأن "ذكر الشئ ومقابله يوضح خصائص كل منهما فتحدد المعانى المرادة فى الذهن تحديدا قويا"(٣).

فقد بينت المقابلة موقفين متناقضين أتم التناقض موقفا تجتمع فيه جوانب الظلم والعدوان والتجاوز والآخر تجتمع فيه جوانب التقوى والإيمان والسماحة والالتزام(٤).

وبذلك يكون النظم الكريم قد وضع الوضعين أمام القاتل لكى يدرك الفارق بين حاله الحاقد وحال الآخر المتسامح فيرعوى عما عزم على فعله ويخجل من نفسه.

---

(١) حاشية الشهاب على تفسير البيـــضاوى، ج٣ ص ٤٥٨٠ ت- الـــشيخ/ عبـــد الـــرزاق المهدى، دار الكتب العلمية، بيروت، ط أولى ١٤١٧هـــ/ ١٩٩٧م

(٢) ينظر: الإيضاح ج٦ ص ١٦.

(٣) الصبغ البديعى د/ أحمد موسى، ص ٤٧١، دار الكتاب العربى، بيروت، ط ١٣٨٨هـــ/ ١٩٦٩م.

(٤) ينظر: من بلاغة أسلوب المقابلة فى القرآن الكريم٠ د/ فتحية العقدة ص ٨٦، مطبعة الأمانة ط أولى ١٤٢٢هـــ / ٢٠٠٢م٠

ثم يعلل خير ابنى آدم لموقفه الذى ارتسمت فيه كل معاني الخير، والوداعة، والسلام فيقول كما حكى القرآن الكريم: ﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾

فلم تكــن وداعته عن عجز، ولم تكن سلامته عن ضعف أو قلة حيلة إنما عن إيمان وخوف من الله (ﷻ).

وقد جاءت هذه الجملة مفصوله عما قبلها لشبه كمال الاتصال ويقع كثيرا فى فواصل الآيات القرآنية، وهذا الفصل وصل خفى أى أنه وصل بغير أداة لفظية، وذلك لما بينهما من الاتصال والربط الذاتى المنافى للعطف، فهذا اللون مظهر من مظاهر نشأة المعانى بعضها من بعض وتمهيد بعضها لبعض فالجملة السابقة أثارت سؤالا: لماذا تفعل ذلك مع هذا الأخ الجاحد؟ فجاءت هذه الجملة كالجواب له وهذه هى اللحمة المعنوية الواصلة بين قوله "إنى أخاف الله رب العالمين "وما قبله، قال الخطيب: أما كونها بمنزلة المتصلة بها فلكونها جوابا عن سؤال اقتضته الأولى، فتنزل منزلته فتفصل الثانية عنها كما يفصل الجواب عن الســؤال"(١).

ومجئ "إن" هنا أغنى عن الربط بالفاء، وفرق بين أن يقال: "إنى أخاف" و"فأنا أخاف" يقول عبد القاهر: "واعلم أن من شأن "إن" إذا جاءت على هذا الوجه أن تغنى غناء الفاء عاطفة مثلا، وأن تفيد من ربط الجملة بما قبلها أمرا عجيبا فأنت ترى الكلام بها مستأنفا غير مستأنف ومقطوعا موصولا معا"(٢).

---

(١) الإيضاح ج٣ ص ٩٧.

(٢) دلائل الإعجاز ص ٢٧٣.

وإذا كان عبد القاهر قد ألمح إلى تفوق الوصل الخفى، وأن الفاء وإن قامت بدور "إن" فى الربط بين الجمل فإنها لا تضاهيها فى الحسن، ولا تغنى غناءها فى ذوق أهل البيان، فإنه وضع أيدينا على الفرق بين أن تتناسل المعانى كما يتناسل الأحياء وبين أن تتواصل المعاني تواصل من تجمع بينهما عرى الصداقة وتضمهما روابط الألفة فكما لا تسأل عن سبب اتصال الابن بأبيه سؤالك عن الأسباب التى جمعت بين صديقين فكذلك لا تحتاج جملة الجواب فى ارتباطها بجملة السؤال إلى رباط خارجى احتياج الجملتين التى تربط بينهما الفاء"(١).

فجملة "إنى أخاف الله رب العالمين" تتناسل من رحم الجملة قبلها فهى امتداد طبيعى لها، بخلاف لوجئ "بالفاء" "فهى نص فى التعليل، وأن الكلام لم يبن على أساس أن تكون الجملة الثانية متولدة عن الجملة الأولى، وإنما هى مرتبطة بها بالفاء التى تعطفها عليها عطف العلة على المعلول كأن هنا كلا مين متميزين أحدهما علة للآخر قامت الفاء بينهما مقام العروة الخارجية ولهذا صار الفرق بين بناء الأسلوبين فرقا ظاهرا، فأحدهما يقوم على الروابط الداخلية الخفية، والآخر على العلاقات اللفظية الظاهرة"(٢).

ومجئ "إن" فى مفتتح هذه الجملة أفاد التأكيد على شدة خوفه من الله (ﷻ) ولعل وجه دلالة "إنَّ" على التأكيد كامن فى جانبين:

الأول: من ناحية البناء الصوتى لهذا الحرف حيث ينبعث الهواء المقذوف من الحلق إلى الخياشيم فيتردد ويجول فيها، ويسمع لجولانه فى الأنف صدى

---

(١) ينظر: أسرار حروف العطف فى الذكر الحكيم، " الفاء" و " ثم " ص ٩٩.

(٢) دلالات التراكيب د/ محمد أبو موسى ص ٣١٩.

ناعما تتبعه غنة مدوية باحتكاك الهواء بجدار الأنف، فيحدث فى السمع إيقاعا يتكرر مرة بالسكون ثم أخرى بالفتح، وبذلك يزداد السامع والسمع تشبعا به فيستقر مفهومه فى الذهن وغايته فى الوجدان وحينئذ يقع الكلام مؤكدا([1]).

فالدلالة الصوتية لـــ "إنَّ" تفيد التوكيد "كما توحى بها تلك الغنة التى تغن بمقدار حركتين يحدث من خلال النطق بها نوع من الضغط والارتكاز الذى يشبه الإصرار على تأكيد المعنى وتثبيته لدى السامع"([2]).

الثانى: دخولها على الجملة الاسمية خاصة:" والجملة الاسمية تفيد تأكيد المعنى، وتدل على معنى أو فى مما تدل عليه الجملة الفعلية، ولذلك كان تأثير الجملة الاسمية أقوى من تأثير الجملة الفعلية "([3]).

وذلك لدلالتها على الثبوت والدوام، ولعل التأكيد الذى أقيمت له "إن" فى أصل وضعها يفرغ فيضه فى تأكيد عليه ما بعدها فى مثل هذا المقام، وليـــس لتأكيد مضمون خبرها فحسب"([4]).

وفى هذه الجملة إيجاز بالقصر([5])، فالألفاظ قليلة والمعانى لا حصر لها فقد جمع فى هذه الجملة توحيد الألوهية، وتوحيد الربوبية، والمجئ بهما معا يناسب

---

(١) أفدت هذه الدلالة مما ذكره الشيخ العلامة محمود محمد شاكر فى بحث له بعنوان: علـــم أصوات الحروف سر من أسرار العربية وقد نشر فى مجلة المقتطـــف، ص ٦٤ عـــدد يونيو ١٩٥٤م.

(٢) الإعجاز الصوتى فى القرآن الكريم، د/ عبد الحميد هنـــداوى ص ٣٩، الـــدار الثقافيـــة للنشر، ط أولى ١٤٢٥هـــ / ٢٠٠٤م.

(٣) البلاغة العالية، علم المعانى د/ عبد المتعال الصعيدى، ص ٥٦، المكتبة السلفية بدون.

(٤) سبل استنباط المعانى من القرآن والسنة، د/محمود توفيق ص ٢١٠.

(٥) ينظر: الإيضاح، ج٣ ص ١٨١.

جو النبأ إذ فيه بث رسالة تنبيه وتحذير شديدين لأخيه ذكره فيها بالذات العلية إلها وربا وذلك له فى النفس السوية عظيم الأثر فهما كفيلان بتربية المهابة فى النفس.

فلفظ الجلالة "الله" اسم للموجود الحق الجامع لصفات الإلهية المنعوت بنعوت الربوبية المنفرد بالوجود الحقيقى(١).

و"الله" أكبر الأسماء وأجمعها للمعانى ولذلك كان الاسم المهيمن فى القرآن الكريم إذ ورد سبعا وتسعين وستمائة وألفين مرة(٢).

فمن شأن هذا الاسم الأعظم "الله" وما فيه من معانى القهر والغلبة والجلال اجتثاث نوازع الشر فى النفس.

ومعنى "الرب" هو السيد والمالك والمتصرف فى مخلوقاته بإرادته(٣) وقد ورد فى القرآن الكريم ثمانيا وستين وتسعمائة مرة، وجاء مضافا إلى "العالمين" خاصة اثنتين وأربعين مرة(٤).

وقد جاء القرآن الكريم على هذا النحو من تنويع المضاف إلى "الرب"، للإشارة إلى عموم ربوبيته تعالى وسيطرته على جميع مخلوقاته الكونية والأرضية بالإضافة إلى ما يكتسبه المضاف من تفخيم نتيجة لتفخيم ما أضيفت

---

(١) المقصد الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى، أبو حامد الغزالى، ص ٦٠، ت٠ أ/ محمد عثمان الخشت، القاهرة ط ١٩٨٥م.

(٢) ينظر: الأسماء والصفات، الإمام البيهقى، ص ٣٤، دار الكتب العلمية ــ بيروت، والمعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، أ/ محمد فؤاد عبد الباقى ص٣٩ وما بعدها.

(٣) كتاب الأسماء والصفات البيهقى، ص ٩٤.

(٤) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، أ/ محمد فؤاد عبد الباقى، ص٢٨٥ وما بعدها.

إليه، فالله رب العالمين ورب السماوات والأرض، ورب المشارق والمغارب ورب كل شئ... فماذا بقى لإثبات عظمته تعالى وامتداد سلطانه وعموم قدرته، وماذا بقى فى الكون خارجا عن ملكوت الله، وقد عم سلطانه كل شئ؟!(١).

فإضافة "رب" إلى "العالمين" أفاد عموم ربوبيته للعالمين بما فى معنى الربوبية من العطاء والعون والمدد والرعاية، والجملة فى مجملها تعريض بأخيه الذى لا يخاف الله رب العالمين.

ودلالة التخويف بلفظ الجلالة "الله" ظاهرة ووجه التخويف بـــ " **رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ**" مع أن فيها معنى التربية والإحسان والرعاية أن ما عند الله من عظيم العطاء قد يضيع بالمعصية، فكأنه فى سبيل تخويفه سلك طريقين: طريق العقوبة الإيجابية وهو ما توحى به كلمة "الله" من جلال ومهابة.

وطريقا آخـــر هو العقوبة السلبية من خلال حرمانه من عطاء الربوبية، وبذلك يكون تمام التخويف الذى به يكون ضبط حركة النفس وزجرها عن المعصية، كما أن فى "**رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ**" تذكيرا بأن الله هو الحافظ والراعي للعالمين جميعا والمتحدث منهم فلن يضيعه الله.

فالأخ المؤمن التقى يحاول كسر الشر الهائج فى نفس أخيه الشرير فكان قوله كما حكى القرآن الكريم:﴿ **لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ** ﴾

---

(١) ينظر: أسماء الله الحسنى دراسة فى البنية والدلالة، د/ أحمد مختار عمر ص١٢٣، عالم الكتب، ط أولى ١٤١٧هـــ/ ١٩٩٧م.

فارتسم فيها نموذج من الوداعة والسلام والتقوى فى أشد المواقف استجاشة للضمير الإنساني وحماسة للمعتدى عليه ضد المعتدي، وإعجابا بهدوئه واطمئنانه أمام نذر الاعتداء، وتقوى قلبه وخوفه من رب العالمين، ولقد كان فى هذا القول اللين ما يفثأ الحقد، ويهدئ الحسد ويسكن الشر، ويمسح على الأعصاب المهتاجة، ويرد صاحبها إلى حنان الأخوة وبشاشة الإيمان وحساسية التقوى أجل، لقد كان فى ذلك كفاية.. ولكن الأخ الصالح يضيف إليه النذير والتحذير(١).

وهــذا ما حكاه القرآن الكريم: ﴿ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

وقد جاءت هذه الآية مفصولة عما قبلها تنبيها على كفاية كل من الجملتين " ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾، وهذه الجملة فى العلية(٢).

ويقول الألوسي:

"ولما كان كل منهما علة مستقلة لم يعطف أحدهما على الآخر، إيذانا بالاستقلال ودفعا لتوهم أن يكون جزء علــة لا علــة تامة"(٣).

ويقول صاحب التحرير: "فالجملة تعليل للتى قبلها ولذلك فصلت وافتتحت بــ"إن" المشعرة بالتعليل بمعنى فاء التفريع"(٤).

---

(١) فى ظلال القرآن، ج٢ ص ٨٧٦.

(٢) ينظر: تفسير أبى السعود، ج٣ ص ٢٧.

(٣) روح المعانى، ج٦ ص ١١٣.

(٤) ينظر: التحرير والتنوير، ج٦ ص ١٧١.

فتلك الجمل تكشف عن تداعى المعانى فى النفس وخروجها فى نسق لفظى ذى اتصال معنوي مما يعكس وضوح الفكرة المسيطرة على نفس المقتول "هابيل" فهو يخرج علة بعد علة كأنها ذفرات متوالية فلا حاجة إلى الواصل اللفظى فهو مشغول بهدف واحد هو زجر تلك النفس عن اقتراف تلك الجريمة.

وجاء تصدير كل جملة بـــ "إنَّ" ومعها ضمير المتكلم هذا الضمير الذى يمثل ذات المتكلم "هابيل" والذى بدا حاضرا بقوة فى قوله "**مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ**" ثم فى "**إِنِّيٓ أَخَافُ**"، ثم فى: "**إِنِّيٓ أُرِيدُ**" ليوضح مدى لصوق هذه المعانى بنفسه إيمانا بها ووكادتها فى نفسه، ومن أجل ذلك لم تأت الجملة هكذا مثـــلا:

"وأريد أن تبوأ..." ففرق بين هذا النحو وذلك التعبير: "إنى أريد..." إن المعانى تتداعى كما يحس بها هو كما أن مجئ "إن" مرة ثانية زاد من ظلال التوكيد على المعنى الذى جاء فى قوله تعالى: "**إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ**".

ولذلك جاءت الألفاظ مناسبة لهذا التأكيد فالفعل "أريد" يوحى بتوفر الرغبة والعزيمة والتصميم فى تحقق ما أراده.

وجاء المصدر المؤول "أن تبوأ" مفعول الإرادة ليفيد معنى غير الذى يفيده المصدر "فالمصدر المؤول أو الفعل يتيح صلاحية الكلام لإفادة اعتبارات من شأنها أن تقوى المعنى أو تجعله أنسب للمقام"(١).

ويبين ابن القيم أبلغية مجئ المصدر المؤول فى القرآن الكريم فيذكر أن المصدر قد يكون فيما مضى، وفيما هو آت، وليس فى صيغته ما يدل على

---

(١) خصائص التعبير القرآنى، د/ عبد العظيم المطعنى، ج٢ ص ٢٩٥.

الزمن، فجاءوا بلفظ الفعل المشتق منه مع "أن" ليجتمع لهم الإخبار عن الحدث مع الدلالة على الزمان(١).

وبناء على ذلك فإن المصدر المؤول "أن تبوأ" أنسب لمعانى التأكيد الملحوظة فى الأسلوب، فالمصدر المؤول قد جعل الكلام صالحا لدخول حرف التوكيد "أن" على الجملة "تبوأ" مما يقوى معنى التوكيد الذى بدأته "إن" فى مستهل الجملة، كما أن مجئ الفعل "تبوأ" وهو فعل مضارع فيه استحضار للمعنى أمام أعين المتلقى وهذا أبلغ فى الزجر والتأثير خاصة وأن دلالة الفعل "تبوأ" دلالة خصبة شأن ألفاظ القرآن الكريم قاطبة. يقول ابن عطية:

"كتاب الله لو نزعت منه لفظة ثم أدير لسان العرب فى أن يوجد أحسن منها لم يوجد"(٢).

فهذا اللفظ "تبوأ" ذو عطاءات كثيرة تتوافق ولا تتعارض.

"فباء بإثمه" فهو يبوأ إذا أقربه، وفيها معنى احتمله وصار مأوى الإثم، وفيها معنى اللزوم وأصل البواء اللزوم، وتبوأ داره استمكن منها ومنه قوله تعالـــى: ﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ ﴾ يونس: ٩٣ (٣).

فمعنى "تبوأ بإثمى وإثمك" يعطى دلالة الالتزام والتمكن والإقرار، وحمل الطاهر ابن عاشور الفعل على المجاز، فقال ": تبوأ: ترجع وهو رجوع مجازى أى تكتسب ذلك من فعلك فكأنه خرج يسعى لنفسه فباء بإثمين"(٤).

---

(١) ينظر: بدائع الفوائد ابن القيم، ج١ ص ١٠٠.

(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية الأندلسى، ج١ ص ٣٩، ط المجلس العلمى بفاس، تونس ١٣٩٥هـ.

(٣) ينظر: تاج العروس الزبيدى، "بوأ" ولسان العرب "بوأ"، والمفردات فى غريب القـرآن، ص ٧٤.

(٤) التحرير والتنوير، ج٦ ص ١٧١.

ولا حاجة إلى حمل الكلام على غير الحقيقة فالمعنى من قبيل الحقيقة، خاصة أن الدلالة خصبة فهو بوأ لازم، ومتمكن من صاحبه لأنه قائم على اعترافه هو وإقراره هو فكأنه يريد أن يعريه أمام نفسه وأمام الله (ﷻ) وهذا المعنى ناظر إلى أن المقتول لم يرتكب أدنى شئ يؤاخذ به لأنه يخاف من الله ربه ورب كل شئ، فالمعانى تتناسل وتتكامل فيما بينها لتعطى صورة واقعية لشخصية المقتول ويغذى معنى الالتزام والتمكن مجئ "الباء" التى أصل معانيها الإلصاق، فهى آثام مستقرة وثابتة وملتصقة به لا يستطيع دفعها فليس له إلا الإقــرار بها.

ومن أجــل هذا المعنى عبر بالإثم دون الذنب، فالذنب هو المخالفة لأمر الله تعالى أو نهيه الإلزاميين، وأما الإثم فهو الأثر المترتب على الذنب بمعنى أنه إذا اجترح الذنب وفعله أصبح آثما، فكل من أذنب فهو آثم أى كل من ارتكب الفعل المخالف لأوامر الله ونواهيه فقد أصبح مستحقا للإدانة من قبل الله تعالى وهو معنى "الإثم"، فالإثم هو الاستحقاق للعقوبة المسببة عن الذنب، وهذا المعنى واضح فى قوله تعالى:

﴿ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا۟ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ۗ وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ ۚ وَمَن

﴿ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ البقرة: ٢٨٣، ومنه قولهم: فلان آثم بذنبه(١).

فالإثـــم يلحظ فيه ارتكاب الذنب، ولذلك رتب عليه دخول النار.

والمقصود بـــ "إثمى" بإثم قتلى ومعنى بـــ "إثمك" أى إثمك الذى كان قبل قتلى(٢).

ويعـــلل الألوسى إضافة "الإثم" إلى ضمير ياء المتكلم فى قوله "إثمى" بأن الإثم نشأ من قبله، أو هو على تقدير مضاف(٣)، وقدر الزمخشرى المضاف فقال: بمثل إثمى(٤).

وأرى أن قوله "بإثمى" مجاز مرســـل علاقته اعتبار ما سيكون.

فالأصل "قتلى" فإذا ارتكبه سيؤول إلى إثم والسر البلاغى فى ذلك أن التعبير عن القتل بلفظ "الإثم" فيه دلالة على أن قتله من قبيل الاعتداء والتجبر فليس له أى حق فى قتله.

وكلا الإثمين ــ كما يقول الألوسى ــ إثم المخاطب والأمر فيه سهل(٥)، وإذا كان الأمر فى النهاية راجعا إلى القاتل وأنه إن باء بآثامـــه سيبوء حتما

---

(١) ينظر: تاج العروس الزبيدى، "أثم"، ولسان العرب "أثم"، والمفردات فى غريب القـــرآن، ص ١٨.

(٢) ينظر: جامع البيان الطبرى، ج٥ ص ١٢٥.

(٣) روح المعانى، ج٦ ص ١١٤.

(٤) الكشاف، ج١ ص ٦٠٦.

(٥) روح المعانى ج٦ ص ١١٤٠

بإثم المقتول؛ فهل هناك فرق بين تلكم الصياغة التعبيرية وبين أن يقال مثلا: "إنى أريد أن تبوأ بآثامك "أو" بإثمك فقط"؟!.

أقول ما جاء فى السياق القرآنى يعد لونا من ألوان الإطناب هو عطف العام على الخاص(١)، وذلك تركيزا واهتماما بشأن الخاص وتكثيرا للآثام وهذا أدعى لزجره وتخويفـــه.

وقد يبدو ثمت إشكال فى هذا المعنى توقف معه العلماء وأجابوا عليه إذ قالوا: كيف أراد هابيل وهو من المؤمنين أن يبوأ قابيل بالإثم وهو معصية، والمؤمن يحب لأخيه ما يحب لنفسه؟ وأجابوا عن ذلك بعدة أقوال منها:

أولا: أن المراد إنى أريد أن تبوأ بعقوبة قتلى ولا شك أنه يجوز للمظلوم أن يريد من الله عقاب ظالمه.

ثانياً: أن فى الكلام محذوفا "تقديره: إنى أريد أن لا تبوأ بإثمى وإثمك، فحذف "لا" كقوله: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ﴾ لقمان: ١٠، أى: أن لا تميد بكم.

ثالثا: أن المعنى: أريد زوال أن تبوأ بإثمى وإثمك وبطلان أن تبوأ بإثمى وإثمك، فحذف ذلك، وقامت "أن" مقامه كقوله تعالى: ﴿ وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱسۡمَعُواْۖ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَأُشۡرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡعِجۡلَ بِكُفۡرِهِمۡۚ قُلۡ بِئۡسَمَا يَأۡمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ البقرة: ٩٣، أى حب العجل.

---

(١) ينظر: الإتقان فى علوم القرآن، السيوطى ج٢ ص ١٩٢٠

رابعاً: المعنى: إنى أريد أن تبوأ بإثم قتلى إن قتلتنى لأنى لا أقتلك فإن أنت قتلتنى فإنى مريد أن تبوأ بإثم معصيتك الله فى قتلك إياى وهو إذا قتله فهو لا محالة باء به فى حكم الله فإرادته ذلك غير موجبة له الدخول فى الخطأ(١).

وكل هذه التأويلات ناظرة إلى أن المعنى فيه إشكال فمن تقدير محذوف يقلب معنى الآية إلى تكلف فى التأويل، فى حين أن المعنى لا إشكال فيه والرأى الأخير هو المقبول وهو ما رجحه الطبرى وقال إن أكثر أهل العلم عليه.

ويؤيد ذلك أن الآية "إنى أريد أن تبوأ.." لا ينظر إليها بمعزل عن سياق المعانى وتناميها فهذا البوأ مراد بكل معانى الإرادة إذ هو ناظر إلى جملة الشـــرط فى قوله: "لئن بسطت إلى يدك لتقتلــنى... " فخرج الكلام مخرج الزجر والوعظ والتحذير ولم يخرج مخرج الرغبة فى أن يقتله أخوه"(٢).

فذلك البوأ داخل فى دائرة التخويف والترهيب لأن القاتل سيعاقب سواء أراد المقتول ذلك أم لم يرد، فالأمر أقرب إلى التذكير بعاقبة أفعاله والذى كان نهايتها ماحكاه القرآن الكريم على لسان هابيل: "فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ".

و"الفاء" هنا سببية فما قبلها سبب فيما بعدها وفيها معنى الترتيب والتعقيب فالبوأ بالآثام سبب فى دخول النار، و"تكون" مضارع "كان" وهى عبارة عما

---

(١) ينظر: جامع البيان، الطبرى، ج٥ ص ١٢٥، ومفــاتيح الغيــب، ج١١ ص ٢١٣، وزاد المسير لابن الجوزى، ج١ ص ١٩٩، وفتح القدير الــشوكانى، ج٢ ص ٣٤، وتفــسير القاسمى ج٤ ص١٠٩، وفتح الرحمن شرح ما يلتبس من القرآن، الشيخ زكريا بن محمد الأنصارى، ص ٧٨، دار الكتب العلمية بيروت، ط أولى ١٤٢٤هـــ/ ٢٠٠٣م.

(٢) تفسير سورة المائدة، د/ مصطفى العدوى، ص ٢١٦.

مضى من الزمن، وما استعمل منها فى جنس الشئ متعلقا بوصف له هو موجود فيها، فتنبيه على أن ذلك الوصف لازم له قليل الانفكاك منه(١).

ومجئ المضارع من "كان" يدل على معنى عدم الانفكاك والديمومة فى المستقبل وهذا مناسب لمقام التخويف والترهيب والتهديد ويزداد الترهيب ويبلغ أقصاه فى قوله " من أصحاب النار "وفيها معنى الملازمة، ورأى فيها البقاعى دلالة على الخلود فى النار"(٢).

واستدل الطبرى على ذلك بحديث النبى (ﷺ): "ما من نفس تقتل ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كفل منها ذلك بأنه أول من سن القتل"(٣).

وقد تتبعت الآيات التى وردت فيها أصحاب النار فوجدتها تعنى الملازمين لها المخلدين فيها ومن هذه الآيات: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾ البقرة: ٣٩.

﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَـٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾ البقرة: ٨١.

﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَآ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾ الأعراف: ٣٦.

---

(١) ينظر: المفردات فى غريب القرآن، ص ٤٢١.

(٢) نظم الدرر، ج٢ ص ٤٤٦.

(٣) جامع البيان، ج٥ ص ١٢٥، والحديث فى صحيح البخـــارى، ج٦ ص ٢١٢، ومـــسلم ج٣ ص ١٣٠٣.

﴿ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴾ غافر: ٦.

وآيات غيرها كثير، فاستخدام لفظ "أصحاب النار" هنا يوضح عظم الجرم وخطورة هذا الاعتداء.

و"أل" فى النار للعهد أى نار الآخرة،ومما لاشك فيه أن هذا القاتل وهو ابن نبى يعرف أن هناك جنة أعدها الله للطائعين، ونارا أعدها الله للعصاة والكافرين فكلمة "النار" صورتها مطبوعة فى ذهنه فذكرها عند أصحاب القلوب السوية يجرى الدمع ويوقف دقات القلوب، وقد بلغ بهذا التوجيه قمة التخويف والترهيب، واستخدام لفظ "النار" دون غيره من المترادفات كجهنم ونحوه لمناسبة تلك الكلمة "النار" للجو العام للآيات فـــ "النار" تناسب حالة هذا الشقى الذى اشتعلت نفسه حقا وحسدا على أخيه فكان الجزاء من جنس العمل.

وجاء قوله تعالى: "**وذلك جزاء الظالمين**" تذييلا يقرر مضمون ما قبلها(١).

وهذا التذييل من النوع الذى لم يخرج مخرج المثل لعدم استقلاله بإفادة المراد وبلاغته تكمن فى تقرير مضمون استحقاق هذا الأخ للعذاب لأنه ظالم وبئس مثوى الظالمين.

وجاء اسم الإشارة "ذا" ليميز المشار إليه أكمل تمييز والمشار إليه هنا كون هذا القاتل من أصحاب النار، فالمراد تمييزه بهذا الحكم "**جزاء الظالمين**" لأن غرض الكلام معقود عليه وهو الغاية من التخويف والترهيب، فاسم الإشارة يمسك بالجملة التى قبله ويدمجها فى الجملة الثانية وإنما خصت الذال بالدلالة على الإشارة "لأنها من طرف اللسان،والمبهم مشار إليه فالمتكلم يشير نحوه بلفظه أو بيده ويشير مع ذلك بلسانه، فإن الجوارح خدم القلب فإذا ذهب القلب

(١) تفسير أبى السعود، ج٣ ص ٢٨، وينظر فى تعريف التذييل الإيضاح، ج٣ ص ٢٠٤.

إلى شئ ذهابا معقولا ذهبت الجوارح نحوه ذهابا محسوسا، والعمدة فى الإشارة فى مواطن التخاطب على اللسان ولا يمكن إشارته إلا بحرف يكون مخرجه من عذبة اللسان"(١).

واللام هنا للبعد المعنوى، فهذا القاتل بأفعاله يكون من أصحاب النار، وهذا قمة الابتعاد عن رحمة الله (ﷻ).. ونبه بقوله "الظالمين" على السبب الموجب للقتل وأنه قتل بظلم لا بحق"(٢).

واستخدام صيغة الجمع هنا "الظالمين" "لون من التصرف فى الصيغ، وفن من فنون الخروج عن ظواهر الأحوال يفجأ القارئ بما يفتح باصرته على لون من سامق البيان، ويفتح بصيرته على أقباس من أسرار الإعجاز، ويلقى فى ذوقه شوبا من بلاغة النظم الحكيم"(٣).

فالذكر الحكيم يعدل عن الواحد ويسلكه فى الجماعة مبالغة فى تاكيد إثبات الصفة لموصوفها ويكثر ذلك فى القرآن الكريم فى مقام التهديد والوعيد(٤).

فقولـــه "وذلك جزاء الظالمين" بدلا من الظالم "ليستحضر ذهن قابيل هذه الطائفة من الظالمين التى تلاقى من التعذيب مالا يغيب عن بال المخاطب بغية أن يملأ قلبه رعبا حين يتصور نفسه واحدا منهم يعانى ما يعانونه، وهذا أدعى لزجره.

---

(١) بدائع الفوائد لابن القيم، ج١ ص ١٨٥.

(٢) البحر المحيط، ج٣ ص ٤٧٩.

(٣) الإعجاز البيانى فى صـــيغ الألفـــاظ، د/ محمـــد الأمـــين الخـــضرى ص ٤، مطبعـــة الحسين الإسلامية، ط أولى ١٤١٣هـــ/ ١٩٩٣م.

(٤) ينظر: السابق ص ١١٤.

كما أن مجئ صفة العموم "الظالمين" يعد نصحا لكتاب الله (ﷻ) إذ تعظم هنا التربية فتكون نبراسا لكل الناس، فهو وأمثاله يدخل فى زمرة الظالمين فيكون النبأ ذا عطاء مستمر على مر العصور والدهور فالنظم ناظر لتلقى الخطاب فى صورته الأولى "قابيل" وإلى كل مخاطب تسول له نفسه ارتكاب تلك المعصية.

ونجد هذا المعنى فى قوله: "فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ"

وفى قوله "**فأصبح من النادمين**" حتى لا تقف العبرة عند ابن آدم الأول وإنما تكون لكل أبناء آدم قربوا أو بعدوا.

وبذلك يكون هابيل كما حكى القرآن الكريم "قد سلك فى عظته وجوها تأخذ بمجامع اللب ويرعوى لها فؤاد المنصف فقد تبرأ من كونه سببا فى حرمانه من تقبل القربان لأن سبب التقبل عند الله التقوى، ثم انتقل إلى تذكيره بما يجب من خوف الله، ثم إلى تذكيره بأن المعتدى يحمل إثم نفسه وإثم من اعتدى عليه ثم إلى تذكيره بعذاب النار لأنها مثوى الظالمين، ثم أبان سبحانه أن المواعظ لم تجد فيه فتيلا ولاقطميرا فماذا تغنى الزواجر والعظات فى نفس الحاسد الظالم؟ فقال:(١). "فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ"

وكان مقتضى الإيجاز أن يحذف "فطوعت له نفسه قتل أخيه" ويقتصر على قوله "فقتله" لكن النظم عدل عن ذلك قصدا لتفظيع حالة القاتل فى تصوير خواطره الشريرة وقساوة قلبه"(٢).

---

(١) تفسير المراغى، الشيخ أحمد مصطفى المراغى، ج٢ ص ٤٢٢ ت/ محمد باسل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط أولى ١٤١١هـ/ ١٩٩٨م.

(٢) التحرير والتنوير، ج٦ ص ١٧٢.

فمجئ النظم الحكيم على هذا النحو يحمل الكثير من المعانى والشيات تفوت بفواتها.

فالفاء فى "فطوعت" دلت على سرعة تجاوب النفس العكسى مع نصائح أخيه فأخوه فى نصحه وإرشاده يجتهد فى سل سخيمة صدره، ونفس القاتل مشغولة بأمر آخر ولذلك ففى "الفاء" أيضا معنى السببية فنصائح الأخ كانت سببا فى أن تقوم النفس بعملية حشد فى اتجاه مضاد عبر عنه بالفعل "طوعت" وهذا الفعل من فرائد القرآن الكريم، ويفسر بقوله "سولت"، "شجعت"، و "زينت"(١).

إلا أن هذا اللفظ "طوعت" يحمل من المعاني فوق كل هذا ويصور أحاسيس القاتل أبلغ تصوير، ويتعمق فى أغوار النفس البشرية ولم أجد أجمل مما قاله الشيخ محمد رشيد رضا كاشفا عن خلابة هذا الفعل "طوعت" وعظيم عطائه يقول (رحمه الله):" ولم أر أحدا شرح بلاغة هذه الكلمة فى هذا الموضع ببعض ما أجد لها من التأثير فى نفسى وإنها بمكان من البلاغة يحيط بالقلب ويضغط عليه من كل جانب إننى أكتب الآن وقلبي يشغلني عن الكتابة بما أجد لها فيه من الأثر والانفعال، إن هذه الكلمة تدل على تدريج وتكرار فى حمل الفطرة على طاعة الحسد الداعي إلى القتل، كتذليل الفرس والبعير الصعب، فهى تمثل لمن يفهمها ولد آدم الذي زين له حسده لأخيه قتله، وهو بين إقدام وإحجام، يفكر فى كل كلمة من كلمات أخيه الحكيمة، فيجد فى كل منها صارفا له عن الجريمة، يدعم ويؤيد ما فى الفطرة من صوارف العقل والقرابة والهيبة، فكرَّ الحسد من

(١) ينظر: لسان العرب، "طوع "، والمفردات فى غريب القرآن، ص ٣١٣.

نفسه الأمارة على كل صارف فى نفسه اللوامة فلا يزالان يتنازعان ويتجاذبان حتى يغلب الحسد كلا منها ويجذبه إلى الطاعة، فإطاعة صوارف الفطرة وصوارف الموعظة لداعى الحسد هو التطويع الذى عناه الله تعالى، فلما تم كل ذلك قتله وهذا المعنى يدل عليه اللفظ، ويؤيده ما يعرف من حال البشر فى كل عصر، فنحن نرى من أحوال الناس واختبار القضاة للجناة أن كل من تحدثه نفسه بقتل أخ له من أبيه القريب أو البعيد (آدم) يجد من نفسه صارفا أو عدة صوارف تنهاه عن ذلك، فيتعارض المانع والمقتضى فى نفسه زمنا طويلا أو قصيرا حتى تطوع له نفسه القتل بترجيح المقتضى عنده على الموانع، فعند ذلك يقتل إن قدر، فالتطويع لابد فيه من التكرار كتذليل الحيوان الصعب وتعليم الصناعة أو العلم، وقد يكون التكرار لأجل إطاعة مانع أو صارف واحد، وقد يكون لإطاعة عدة صوارف وموانع وأقرب الألفاظ التى قيلت إلى هذا المعنى كلمة " التشجيع " المأثورة، فهى تدل على أنه كان يهاب قتل أخيه، وتجبن فطرته دونه فمازالت نفسه الأمارة بالسوء تشجعه عليه حتى تجرأ وقتل عقب التطويع بلا تفكر ولا تدبر للعاقبة"(١).

فالفعل "طوّع" يناسب بصيغته الصرفية هذا المعنى الدال على الترويض وقوة المعالجة "فتكرير العين فى صيغة" فعل" يدل على تكرير الفعل، وذلك أنهم لما جعلوا الألفاظ دليلة المعانى فأقوى اللفظ ينبغى أن يقابل به قوة الفعل، والعين أقوى من الفاء واللام وذلك لأنها واسطة لهما ومحفوفة بهما فصارا

(١) تفسير المنار الشيخ محمد رشيد رضا، ج٣ ص ٢٨٥ وما بعدها.

كأنها سياج لها ومبذولان للعوارض دونها... فلما كانت الأفعال دليلة المعانى كرروا أقواها وجعلوه دليلا على قوة المعنى المحدث به، وهو تكرير الفعل كما جعلوه دليلا على قوة المعنى المحدث به(١).

فالفعل بهذه الصياغة يحكى الصراع المحتدم داخل هذه النفس البشرية وماصاحبه من قوة احتشاد النفس وتزيينها للباطل خاصة أن ما سيقدم عليه هو أبشع جريمة وهى إزهاق الروح وليس أى روح إنه روح أخيه الناصح الأمين.

وجاء قوله "له" لزيادة الربط كما يقول الزمخشرى"(٢)، وقيل: إنها زيدت للتأكيد والتبيين(٣).

وكل ذلك لا تعارض فيه فاللام أصل معناها هو الاختصاص وهو معنى لايفارقها(٤)، فالتطويع إنما هو خاص بهذا القاتل لا يتعداه.

كما أن تقديم "له" مناسب تمام المناسبة لأن التطويع مصبه ومركزه هذا الضمير المجرور بلام الملك والاختصاص، فكان لذلك أهم شئ وأعناه، وأحقه بالتقديم وأحراه وإسناد "طوعت" إلى "النفس" فيه دلالة على خطورة النفس فهى أكثر خطرا من الشيطان فلم يكن التسويل والتزيين من عامل خارجي كالشيطان مثلا، وإنما نفسه التى بين جنبيه هى التى أوردته موارد الهلاك.

---

(١) الخصائص ابن جنى، ج٢ ص ١٥٥٠ ت٠أ/ عبد الحكيم بن محمد، المكتبـــة التوفيقيـــة، بيروت.

(٢) الكشاف، ج١ ص ٦٠٨.

(٣) حاشية الشهاب على تفسير البيضاوى، ج٣ ص ٤٦١.

(٤) ينظر: الجنى الدانى المرادى ص ١٠٩.

والنفس هى ذات الشئ وحقيقته، وهى الجوهر البخارى اللطيف الحامل لقوة الحياة والحس والحركة الإرادية، لذا تسمى باصطلاح المناطقة بالروح الحيوانية"([1]).

وتأتى النفس فى القرآن الكريم فى مواضع الكسب خيرا أو شرا([2])، فمجيئها هنا مناسب أتم المناسبة.

ويأتى قوله "قتل أخيه" مفعول التطويع لتبين مدى قبح فعاله، ففرق بين أن يقال: "فطوعت له القتل" أو طوعت له "قتله" أو "قتل هابيل"، إن التعبير القرآنى قصد التصريح بأخوته ليبين "كمال تقبيح ماسولته نفسه"([3])، إن الأخ يحفظ ويرحم ويرفق به فجاء التصريح بقتله ليظهر عمق المأساة وبشاعة الجرم "فالنص القرآنى فيه إشارة إلى شناعة الجرم فى ذاته من حيث الباعث عليه، ومن حيث الصلة بين القاتل والمقتول، ومن حيث ذات الفعل، فإنه أكبر جريمة إنسانية فى هذا الوجود ولكل هذه المعانى أشار القرآن الكريم بأوجه تعبير، وأدق الألفاظ، وهو سر الإعجاز وفيه بلاغة الإيجاز مع الوضوح وإشعاع المعانى بالنور من ثنايا الألفاظ"([4]).

وجاءت الفاء فى قوله "فقتله" لتطوى الأحداث وتعصف بدقائق الزمان الذى تلاشى بين ما كان يدور فى نفسه وإيقاعه القتل، وكأنه يسارع فى تنفيذ ما أقدم

---

(١) ينظر: التعريفات، الشريف الجرجانى، ص ١٥٠، ت أ/ إبراهيم الأنبارى، دار الكتاب العربى، بيروت، ط أولى ١٤٠٥هـ، ولسان العرب "نفس".

(٢) ينظر: دقائق الفروق اللغوية فى البيان القرآنى، د/ محمد ياس خضر الدورى، ص ١٣٩.

(٣) تفسير القاسمى د/ محمد جمال الدين القاسمى، ج٤ ص ١١٠.

(٤) زهرة التفاسير، الشيخ/ محمد أبو زهرة، ص ٢١٢٨.

عليه خوفا من أن تنتصر دعوة الخير التى أطلقها أخوه فقد نقلتنا الفاء بسرعة من مرحلة التفكير والتطويع إلى مرحلة التنفيذ" وقد تكلم المفسرون فى أشياء من كيفية قتله ومكان قتله، وعمره حين قتل ولهم فى ذلك اختلاف ولم تتعرض الآية لشئ من ذلك"(١) ولذلك فلا حاجة إلى الخوض فى مثل هذه الأمور ولو علم الله سبحانه فيها خيرا وعبرا لذكرها، وهل بعد قتل الأخ لأخيه أحداث أو كلام؟!.

ويبدأ النظم القرآنى فى بيان عاقبة أفعاله بقوله تعالى:

"فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ"

والفاء فيها معنى السببية والتعقيب ومعنى "أصبح" أى صار(٢) بلا ملاحظة وقت الصبح، فإن من عادة العرب أن يقولوا: أصبح فلان خاسرا لصفقته إذا فعل أمرا ثمرته الخسران، ويعنون بذلك الحصول مع قطع النظر عن وقت دون وقت"(٣).

ويرى ابن عطية أن "أصبح" من باب إقامة بعض الزمان مقام كله، وخص الصباح بذلك لأنه بدء النهار والانبعاث إلى الأمور ومظنة النشاط"(٤).

وأرى أن الرأى الأول هو الصواب فأصبح بمعنى صار ولا معنى لما قاله ابن عطية من إقامة بعض الزمان مقام كله، كما أنه لا علاقة بين كون الصبح

---

(١) البحر المحيط، ج٣ ص ٤٧٩.

(٢) ينظر: لسان العرب "صبح".

(٣) ينظر: حاشية القونوى على تفسير الإمام البيضاوى، ج٧ ص ٤٤٨، ومجمع البيان فـــى تفسير القرآن، الطبرى ج٣ ص ٣٠٥، دار الفكر العربى، ط ١٤١٤هـــ / ١٩٩٤م.

(٤) المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز لابـــن عطيـــة الأندلـــسى، ج٢ص١٨٠ ت٠أ/ عبدالسلام عبدالشافى محمد، دار الكتب العلمية، لبنان، ط أولى ١٤١٣هـــ/ ١٩٩٣م.

أول النهار وهو بدء الانبعاث والنشاط وما نحن فيه، وأرى أن مجئ لفظ "أصبح" هنا يدل على بدء دخوله مرحلة جديدة فى حياته عنوانها الخسران والندم.

وفى الكلام حذف تقديره "فى الدنيا والآخرة"(١)، ولا شك أن فى الحذف سرا بلاغيا هو التركيز على معنى "الخسران" الثابت له، فقد تحول كل شئ فى حياته وآخرته إلى الخسران، فهو فى دنياه خاسر مضطرب حيران حزين، وفى قبره خاسر، وفى بعثه ومحشره خاسر، فهذا المعنى يستصحبه لا ينفك عنه فى أى حال من أحوال الدنيا والآخرة.

يقول عبد الله بن عمرو: إن أشقى الناس رجلا لابن آدم الذى قتل أخاه ماسُفك دم فى الأرض منذ قتل أخاه إلى يوم القيامة إلا لحق به منه شر"(٢).

ولا يتركنا النظم حتى يذكر لنا شيئا من خسارته العاجلة وذلك فى قوله تعالـــى: ﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴾ المائدة: ٣١.

وهذه الآية تمثل نهاية النبأ وقد جاءت "الفاء" فى قوله تعالى: "فبعث" لتدل على السببية كما أنها دلت على تحدر الأحداث وتدفقها فليس مثل "الفاء" أى حرف ربط آخر يعبر عن سرعة تسخير الله (ﷻ) هذا الغراب لأداء هذه المهمة ولعل الحذف الذى داخل الأسلوب وتقديره" فجهل مواراته"(٣)، يدل على تقاصر

---

(١) روح المعانى، ج ٦ ص ١١٥.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ج٣ ص ٦٦.

(٣) البحر المحيط، ج٣ ص ٤٨.

الزمن بين قتله لأخيه وبعث الله (ﷻ) للغراب، كما أن هذا الحذف سمة راسخة من سمات القصص القرآنى فالأحداث الثانوية تسقط لعطاءات السياق، ولذلك فإن ماحكاه المفسرون من أن القاتل ظـــــــــل يحمل أخاه عاما حتى أروح ولا يدرى ما يصنع به([1]).

لا حاجة لنا به فهو كلام لا دليل عليه ويرده الدلالة اللغوية "للفاء" وما تدل على السرعة الناظرة إلى سرعة تحلل جسد الميت بعد أيام قليلة وليس بعد سنة.

ومعنى "بعث" أرسل وأصل البعث إثارة الشئ وتوجيهه([2])، فالغراب أرسل بقدرة الله (ﷻ) تسخيرا وإلهاما لأداء ما كلف به، ولذلك لا أرى وجها لحمل الكلام على المجاز وأن فى "بعث" استعارة تصريحيه تبعية شبه فيها التسخير بالبعث([3]).

فالفعل على حقيقته يلقى مزيدا من الأهمية والعناية بما كلف به وأن الأمر من الخطورة بمكان فحرمة الجسد ميتا كحرمته حيا بل أشد فهذا الفعل "بعثه" يشى بعظم المهمة التى مؤداها ستر جسد الميت وهذا يدل على تكريم الإنسان حيا وميتا.

يقول القرطبى مبينا أهمية مهمة الغراب: "فصار فعل الغراب فى المواراة سنة باقية فى الخلق فرضا على جميع الناس على الكفاية من فعله منهم سقط فرضه عن الباقين"([4]).

---

(١) ينظر: جامع البيان، ج٥ ص ١٢٧، والجامع لأحكام القرآن، ج ص ٢١٣٨ ومابعدها.

(٢) لسان العرب، " بعث "، المفردات فى غريب القرآن، ص ٦٣.

(٣) ينظر: التفسير البلاغى للاستفهام فى القرآن الكريم، د/ عبد العظيم المطعنى، ص ٢٤٩، مكتبة وهبة، ط الثالثة ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، ج١ ص٢١٤٠.

وفرق بين "بعث" و "أرسل" قال أبو هلال "الفرق بين البعث والإرسال أنه يجوز أن يبعث الرجل إلى الآخر بحاجة تخصه دونك ودون المبعوث إليه كالصبى تبعثه إلى المكتب فتقول بعثته، ولا تقول أرسلته، لأن الإرسال لا يكون إلا برسالة ومايجرى مجراها"(١).

والتفرقة الدلالية عنده غير منضبطة وأحق منه ما ذكره د/ فاضل السامرائى حيث قال: "بعث فيه معنى الإرسال تقول: بعثت شخصا فيه معنى الإرسال، لكن فى بعث أيضا معانى غير الإرسال، الإرسال أن ترسل رسولا تحمله رسالة لطرف آخر، أما البعث هو أشد وفيه حركة، فالبعث هو الإرسال وزيادة فيه قوة وقسوة وعمل"(٢).

وهذا الذى لحظه شيخنا نراه ماثلا فى الآية الكريمة، فبعث الغراب هنا مرتبط بعمل "يبحث فى الأرض" ليكون تعليما لبنى الإنسان كيف يكون دفن الموتى.

وجاءت كلمة "غرابا" نكرة لتدل على أن المبعوث فرد من جنس الغربان لايمتاز عنهم بشئ فهو خاضع لأحكامهم وصفاتهم حتى تتضح طلاقة قدرة الله (ﷻ) فهو غراب شأنه شأن الغربان لكن بقدرة الله (ﷻ) وتدبيره كان معلما للإنسان، وهذا يوضح مدى تعسف من قال إن الله (ﷻ) أرسل ملكا فى صورة غراب(٣).

فلا حاجة إلى مثل هذا التأويل خاصة أن الفاعل هنا هو الله (ﷻ) من أمره بين الكاف والنون، ودلالة الكلمات ظاهرة واضحة.

---

(١) الفروق فى اللغة لأبى هلال العسكرى، ص ٢٦٨.

(٢) ينظر: لمسات بيانية د/ فاضل السامرانى، ص ٦٥.

(٣) ينظر: مجمع البيان، الطبرسى، ج٣ ص ٣٠٦، وتفسير الماوردى، ج٢ ص ٣١.

وقد ذكر كثير من العلماء الحكمة فى كون المرسل غرابا خاصة، بأن الغراب يتشاءم به فى الفراق والاغتراب وذلك مناسب لهذه القصة(١)، فالعرب تتشاءم بالغراب ولذا استقوا من اسمه الغربة والاغتراب(٢).

وبعث الغراب فيه إشارة أيضا إلى غربة القاتل باستيحاش الناس منه، وجعله مما ينفر عنه، ويقتله كل من يقدر عليه، ومن ثم سمى الغراب البين، وتشاءم به من يراه(٣).

ويذكر الدكتور زغلول النجار أن فى الآية إعجازا علميا لأنه قد ثبت أن الغراب طائر شديد الذكاء فهو يملك أكبر مخ بالنسبة إلى حجم الجسم فى كل الطيور المعروفة، ولذلك تظهر علامات الذكاء المتميز على الغراب من مثل المعرفة الإدراك، الذاكرة، القدرة، القيام بالعديد من الأعمال الجماعية، كما أن الغراب يدفن موتاه ولا يتركها نهبا للجوارح من الطيور ولغيرها من الحيوانات المفترسة أو للتعفن والتحلل فى الجو صونا لكرامة الميت وترفقا بالبيئة والأحياء فيها، وقد ثبت أن الغراب يقوم بحفر الأرض بواسطة كل من مخالبه ومنقاره ليكون حفرة عميقة فيها ثم يقوم بطى جناحى الغراب فى قبره ثم يهيل عليه التراب حتى يخفى جسد الميت تماما كما يفعل المسلمون بموتاهم احتراما لهذا الجسد حيا وميتا.

ويزداد خشوعنا وخضوعنا لسلطان الله القادر عندما نعرف أن للغربان محاكم تلتزم قوانين العدالة الفطرية تحاكم الجماعة فيها أى فرد يخرج على

---

(١) ينظر: البحر المحيط، ج٣ ص ٤٨٠.

(٢) حياة الحيوان الكبرى، الدميرى، ص ١٢٨٠ ت٠أ/ أســعد الفارســى، دار طــلاس، ط ١٩٩٢م.

(٣) نظم الدر، ج٢ ص ٤٤٨.

نظامها، ولكل جريمة عند جماعة الغربان عقوبتها الخاصة بها، ففى حالة اغتصاب طعام الفراخ الصغار تقوم جماعة الغربان بنتف ريش الغراب المعتدى حتى يصبح عاجزا عن الطير كالفراخ الصغار قبل اكتمال نمو ريشها، وفى حالة هدم عش تلزم محكمة الغربان المعتدي ببناء عش جديد، وقد يتبع ذلك الطرد من الجماعة إذا تكررت الأخطاء من هذا النوع، وهكذا تقيم الغربان العدل الإلهى فى الأرض أفضل مما يقيمه

كثير من بنى الإنسان، فالعدل فى الغربان من الأمور الغريزية الفطرية، لأنها لاتشرع لنفسها، ولكنها تتحرك بفطرتها المسلمة بأن الحكم لله وحده، ومن أهم بنودها التشريع فالمشرع هو الله (ﷻ) الذى شرع لكل الخلائق وغرس شريعته فى جبلة كل مخلوق غير مكلف حتى أصبح العدل الإلهى جزءا لا يتجزأ من تكوينهم وفطرتهم، أما الإنسان ذلك المخلوق المكلف فيحاول التشريع من عنده بعلمه المحدود وقدراته المحدودة حتى نسى العدل الإلهى وأراد إقامة عدل نسبى من عنده فظلم نفسه وظلم غيره(١).

فهذا الكلام الماتع يبين أن مناسبة بعث الغراب كامن فى ناحيتين:

الأولى: أن الغراب طائر يدفن موتاه.

الثانية: أن الغراب يعرف قيمة العدل خلافا لابن آدم الذى ظلم واستحل ما حرم الله (ﷻ).

فسبحان الذى بيده ملكون كل شئ، والنص الكريم لم يتركنا حتى أرانا هذا الغراب وهو يؤدي المهمة التى كلف بها وذلك من خلال جملة الصفة:

---

(١) بتصرف من موقع الدكتور زغلول النجار على الشبكة العنكبوتية.

"**يبحث فى الأرض**"

و "البحث" معناه: طلبك الشئ فى التراب والبحوث من الإبل إذا سارت بحثت التراب بأيديها أخرا أى ترمى إلى خلفها، والبحث الحية العظيمة لأنها تبحث التراب(١).

فالفعل هنا مستخدم فى معناه الحقيقى، وهو أبلغ من يحفر إذ فيه معنى الخفة والإثارة والبعثرة والتفتيش وذلك مناسب لحال الطائر.

ومجئ الفعل "يبحث" مضارعا وهو يدل على التجدد والاستمرار دل على إطالة البحث فى الأرض لا إلى واقعة وقعت فقط، فالتعبير بالمضارع عن أمر مضى يدل على أن الفعل مكث وقتا وكان مجال استمرار(٢).

كما أن التعبير بالمضارع فيه استحضار لصورة الغراب وهو يقوم بالحفر، فالقرآن الكريم يصور بالكلمة المعبرة مشهدا حيا متحركا شاخصا فلا يخبرنا عن الحدث وإنما يجعلنا نرى الحدث ونشاهده، ولعل ذلك هو السر فى مجئى هذا القيد "فى الأرض" لأن المعنى يتم إذا قيل: "فبعث الله غرابا يبحث" فدلالة البحث كافية إلا أن هذا القيد يعد إيغالا(٣)، فى غاية البراعة والبيان إذ جعل الصورة النامية المتحركة تامة أمام أعين المتلقى كما أتاح مجئ حرف الظرفية "فى"(٤)، الدلالة على التعمق فى الحفر فالبحث بـــ"فى" أكثر عمقا وأبعد غورا

---

(١) لسان العرب، "بحث".

(٢) ينظر: تفسير المنار، ج٦ ص ٢٨٦، وزهرة التفاسير، ص ٢١٣٢.

(٣) ينظر: الإيضاح، ج٣ ص٢٠٢.

(٤) ينظر: الاقتضاب فى شرح أدب الكتـــاب، البطليوســـى ج٢ ص ٢٨٢٠ت٠أ/مـــصطفى الســـــقا، ود/حامد عبد المجيد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ج١ ١٩٨٢م.

فأضحت كمعول يستخدم فى الحفر وإثارة التراب ودخول حرف الوعاء والظرفية "فى" على "الأرض" مجاز مرسل علاقته الكلية(١).

حيث عبر بالكل "الأرض" وأراد الجزء محل الحفر، وسر بلاغة ذلك إبراز مدى كلف الغراب بالحفر وإتقانه فى ذلك استجابة لأمر الله (ﷻ) فقد بدا الغراب من خلال ذلك التجوز وكأنه من فرط حرصه لو بحث فى الأرض كلها.

فالتركيب يدل على أن الغراب أدى مهمته دون أى تقصير، وتلك الصياغة أيضا أعطت دلالة فقهية للعلماء حيث ذكروا أنه يستحب فى القبر سعته وإحسانه(٢)، وذلك لتمام ستر ابن آدم

هذا وجمهور المفسرين ذكروا أن الله بعث غرابين لا واحدا وإنهما اقتتلا فقتل أحدهما الآخر فحفر بمنقاره ورجليه حفره ألقاه فيها(٣).

"والحق أن الآية الكريمة نصت على أن الغراب قد أخذ يبحث فى الأرض حتى حفر حفرة دفن فيها شيئا أو طيرا ميتا ولم تتعرض لكون المدفون طيرا أو غير طير ولا لكون الطير مات بقتل الدافن، أو مات بسبب آخر، والآية الكريمة بينة واضحة القصد من غير فرض واحد من هذه الفروض بعينه، ومادامت الأخبار التى لامناص من قبولها لصدقها غير مجودة فليس لنا أن نفرض واحدا من هذه الفروض بعينه، والفرض الواحد الذى يقتضيه بيان الغرض والمغزى

---

(١) ينظر: الإيضاح، ج٥ ص ٢٦.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، ج٣ ص ٢١٤٠.

(٣) ينظر: جامع البيان الطبرى، ج٥ ص ١٢٧، والجامع لأحكام القرآن، القرطبى، ج٣ ص ٢١٣٨.

هو أن نفرض أن الغراب أخذ يحفر فى الأرض حتى أتم حفرة وضع فيها شيئا فعلم القاتل الجهول أن ذلك هو الطريق لدفن أخيه"(١).

ثم يذكر النظم الكريم العلة التى كان من أجلها الحفر: ﴿لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾ واللام هنا للتعليل وهو من معانيها(٢)، و "يرى" بمعنى يبصر فالرؤية هنا بصرية(٣).

و "الهاء" مفعول به عائد على القاتل واختلف فى مرجع الضمير المستتر أيعود على "الله" أم على "الغراب"؟ أجاز كثير من المفسرين الأمرين دون ترجيح لأحدهما على الآخـــر(٤).

ومال الرازى إلى القول بأن الضمير عائد إلى الله (ﷻ) واستدل على ذلك بأن الإراءة حقيقة من الله إذ ليس للغراب قصد الإراءة وإرادتها(٥).

والرأى ما رآه البقاعى حيث ذكر أن الأولى أن يكون الضمير المستتر للغراب لتوقيف القاتل على عجزه وجهله بأن الغراب أعلم منه وأقرب إلى الخير(٦).

---

(١) زهرة التفاسير، ص ٢١٣٢.

(٢) ينظر: رصف المبانى فى شرح حروف المعانى، المالقى، ص٢٢٣ ت٠د/أحمد الخراط، مطبوعات مجمع اللغة العربية، بدمشق، بيروت.

(٣) البحر المحيط، ج٣ ص ٤٨٠.

(٤) ينظر: الكشاف، ج١ ص ٦٠٨، ومفاتيح الغيب، ج١١ ص ٢١٤، وتفسير أبى الـــسعود ج٣ ص ٢٨، وتفسير المنار، ج٦ ص ٢٨٦، والتحرير والتنوير، ج٦ ص ١٧٣.

(٥) البحر المحيط، ج٣ ص ٤٨٠.

(٦) نظم الدرر، ج٢ ص ٤٤٧.

وعلى ذلك يكون إسناد "يرى" إلى ضمير الغراب من قبيل المجاز العقلى"(١) لعلاقة السببية فالغراب كان سببا فى تعليم ابن آدم كيف تكون المواراة فهو ليس أهلا لأن يقع تعليمه من الله (ﷻ) مباشرة فتأديبه وإظهار حقارته وعجزه ترجح إسناد الإراءة للغراب.

و "كيف" هنا مجردة عن الاستفهام مرادا منها الكيفية(٢).

و معنى "يواري" يستر وواريته أخفيته كأنه مأخوذ من وراء الإنسان(٣).

فهذا الفعل "يواري" يدل على كمال الستر وإحكامه ولذلك لا يذكر ستر السوءة خاصة فى القرآن الكريم إلا وجاء معه الفعل من مادة "ورى"، كما فى قوله تعالى: ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴾ الأعراف: ٢٠.

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ الأعراف: ٢٦.

وبين "يرى" و "يوارى" طباق يحقق المعنى ويظهره ويؤكده، وقد رشح الطباق هنا بلون بديعى آخر هو الجناس زاد من حسن النظم وفخامة المعنى.

والجناس هنا يسمى تجنيس الإطلاق وهو ملحق بالجناس(٤) حيث التقى اللفظان "يرى" و "يوارى" فيما يشبه الإشتقاق، فتضاعف الجمال التعبيرى هنا

---

(١) ينظر: الإيضاح، ج١ ص ٨٦٠

(٢) التحرير والتنوير، ج٦ ص ١٧٣٠.

(٣) لسان العرب "ورى".

(٤) ينظر: الإيضاح، ج٦ ص ٩٩، وخصائص التعبير القرآنى وسماتة البلاغية، د/عبد العظيم المطعنى، ج٢ ص ٤٣٨.

حين جمع بين المعانى المتضـــادة والألفـــاظ المتجانسة، وهـــذا يحـــدث ميلا وإصغاء إلى المعنى، لأن اللفظ المشترك إذا حمل على معنى ثم جاء والمراد به معنى آخر كان للنفس تشوق إليه(١).

ولما كانت الجثة واجبة الستر وكان الميت يصير بعد موته كله سوءة قال الله تعالى منبها على ذلك وعلى أنها السبب فى الدفن بالقصد الأول: "سوءة أخيه(٢).

فأصل معنى "السوأة" الفرج(٣)، وقد حمل أبو حيان الكلمة على أصلها وذكر أن المراد بالسوأة هنا العورة وخصت بالذكر مع أن المراد مواراة جميع الجسد للاهتمام بها ولأن سترها أؤكد(٤).

فى حين ذكر الطبرى وتبعه كثير من العلماء من أن المراد بالسوأة هنا الجثة برمتها(٥).

وهذا هو الأولى لاستصحاب الحرمة على كامل الجسد ويكون الأسلوب هنا من قبيل الاستعارة التصريحية الأصلية(٦).

---

(١) شرح عقود الجمان، السيوطى، ص ١٤٣، دار إحياء الكتب العربية، بدون.

(٢) نظم الدرر، ج٢ ص ٤٤٨.

(٣) لسان العرب، "ســـــوأ ".

(٤) البحر المحيط، ج٣ ص ٤٨٠.

(٥) ينظر: جامع البيان، ج٥ ص ١٢٨، وتفسير الثعالبى، ج٢ ص ٤٣٩، وزاد المسير، ج٢ ص٢٠١، وتفسير المـــاوردى، ج٢ ص ٣١، وتفـــسير أبـــى الـــسعود، ج٣ ص ٢٨، والتحرير والتنوير، ج٦ ص ١٧٣.

(٦) ينظر: الإيضاح، ج٥ ص ٦٢.

حيث شبهت الجثة بالسوأة بجامع وجوب الستر فى كل ثم استعير اللفظ الدال على المشبه به "سوءة" إلى المشبه "الجثة" وسر بلاغتها كامن فيما تفيض به كلمة السوأة من معانى الحرمة والستر وعدم الاجتراء، و"هذا الضرب من الاستعارة أقرب ضروبها إلى الحقيقة لأن الكلمة فيه لم تخرج عن جنس معناها وإنما تظل دلالتها فى دائرة هذا الجنس"(١). ولم يملك القاتل أمام هذا الدرس القاسى إلا أن يقول كما حكى القرآن الكريم:

﴿ قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۚ ﴾

وقد جاء الكلام مفصولا عما قبله لما بينها من شبه كمال الاتصال "كأنه قيل فماذا قال عند مشاهدة حال الغراب؟ فقيل: قال: ياويلتى"(٢).

وقوله "يا ويلتى" تحسر وتوجع وهى كلمة تقولها العرب عند حلول الدواهى والعظائم والويل حلول الشر، والويل: الفضيحة والبلية وإذا قال قائل: ياوليتاه فمعناه، وافضيحتاه والنداء للويلة لإفادة حلول سببها الذى تحل لأجله حتى كأنه دعاها إليه وقال: أقبلى فقد آن أوانك(٣).

وأصل النداء أن يكون لمن يعقل(٤)، ولذلك فنداء "الويل" من قبيل الاستعارة المكنية(٥) حيث شبه "الويل" بعاقل ينادى ويتجاوب ثم حذف المشبه به ودل

---

(١) التصوير البيانى د/ محمد أبو موسى، ص ٢١٥، مكتبة وهبة، ط الرابعة ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

(٢) ينظر: تفسير أبى السعود، ج٣ ص ٢٨.

(٣) ينظر: لسان العرب" ويل "، والبحر المحيط، ج٣ ص ٤٨١، ونظم الدر، ج٢ ص ٤٤٨، وتفسير المنار، ج٦ ص ٢٨٦ وما بعدها.

(٤) ينظر: الدر المصون السمين الحلبى، ج٤ ص ٢٣٩.

(٥) ينظر: الإيضاح، ج٥ ص ١١٨.

عليه بشئ من لوازمه وهو "يا" الموضوعة للنداء على سبيل الاستعارة المكنية التى أفادت تشخيص هذا الويل وتجسيده أمامه حتى كأنه من كثرة إحساسه به وعمق ألمه به شاخص أمامه يخاطبه ويناديه وهذا من أسرار جمال الاستعارة التى أومأ عبدالقاهر إليها بقوله:" فإنك لترى بها الجماد حيا ناطقا، والأعجم فصيحا، والأجسام الخرس مبينة والمعانى الخفية بادية جلية"(١).

ومن الإعجاز الصوتى هنا مجئ الألف بدلا من ياء المتكلم فى قوله "ويلتا" فهذه الكلمة بانتهائها بمد التاء المفتوحة بالألف تحاكى تماما صوت العويل لمن يصرخ ويندب، وكذلك حروف الندبة فى اللغة العربية إنما تحكى صوت النادب وفعله سواء بسواء ومنها ياء الندبة فى هذه الكلمة(٢).

ثم يبين أسباب صراخـــه وعويله فى قوله تعالى: ﴿أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي﴾

والاستفهام هنا إنكارى(٣)، ينفث من خلاله الندم والحسرة ومعانى العجب والدهشة(٤).

فهذا الأسلوب جلد لذاته وإيلام شديد لنفسه لأنه باستخدامه للاستفهام كأنه أوقع فى روعه أنه يطلب جوابا من نفسه لهذا السؤال فيعيا بالجواب ويخجل من نفسه فتزداد حسرته ويفيض حزنه ويكون بذلك قد غذى حسرته وآلامه من

---

(١) أسرار البلاغة، ص ٤٣.

(٢) الإعجاز الصوتى د/ عبد الحميد هنداوى، ص ٦٧.

(٣) التحرير والتنوير، ج٦ ص ١٠٤.

(٤) ينظر: التفسير البلاغى للاستفهام فى القرآن الكريم، د/ عبد العظيم المطعنى، ص ٢٤٩.

خلال هذا الاستفهام الإنكارى ومن خلال تفجعه فى قوله "ياوليتى" فكأنه أراد أن يملأ نفسه وجنبات الأرض البكر الخالية من حوله بالصراخ والعويل.

ويبين سبب حسرته وويله فى قوله: "أن أكون مثل هذا الغراب" فحسرته كامنة فى أنه "استقصر إدراكه وعقله فى جهله ما يصنع بأخيه حتى يعلم وهو ذو العقل المركب فيه الفكر والروية والتدبير من طائر لا يعقل"(١) إن تحسره ليس لأنه قتل أخاه بل لأنه طعن فى غروره وأصيب فى تكبره، وزهوه، فكانت قمة الفاجعة للمتلقى حين يسمع صراخ القاتل وعويله " ياويلتا " فيستبشر خيرا بأن الضمير قد استيقظ، وأن العقل قد رشد وأن طريق التوبة قد بدأ، إلا أن كل هذا يتبخر سريعا عندما يعلن أسباب حسرته فى كونه عاجزا أمام الغراب، ليكشف ذلك كم كانت أنانية تلك النفس، وعزتها بالإثـــم !

إنه لا يتحسر على من قتل، لايتحسر على قتله للتقوى ورجاحة العقل وطهر اللسان إنما يتحسر على شئ خاص بحاله هو.

وفى قولـــه "مثل هذا الغراب" تشبيه أطلق عليه الدكتور المطعنى تشبيها سلبيا ويكثر مجيئه مع الاستفهام الانكارى ويأتى حين يجرى القرآن الكريم مقارنة بين معنين ضديين أو كالضدين(٢).

فهو بهذا التشبيه السلبى ينفى عن نفسه أن يكون مشابها لهذا الغراب ليس علوا عنه بل هو أسفل منه وأحقر، وهذا ما وشى به أيضا اسم الإشارة القريب "هذا" الذى أفاد التحقير من شأن الغراب وهذا ينعكس على القاتل فهو أحقر من الحقير وأقل منه شأنا.

---

(١) البحر المحيط، ج٣ ص ٤٨١.

(٢) ينظر: خصائص التعبير القرآنى وسماته البلاغية، د/ المطعنى ص ٢٧٣ ومابعدها.

وفى قوله "فأوارى سوءة أخى" عطف بفاء السببية على قوله "أن أكون" كأنه قال أعجزت عن كونى مشبها بالغراب فمواريا، وقد جاء التعبير بـــ "أخى" وضعا للمظهر موضع المضمر وفائدته فى الدرس البلاغى كما يقول ابن الأثير "تعظيم شأن الأمر الذى أظهر عنده الاسم المضمر أولا"(١).

وقد بين لفظ "أخى" عظيم مأساته وحسرته ولعل ترداد هذا اللفظ ثلاث مرات فى هذا النبأ فى قوله "قتل أخيه"، و"سوأة أخيه" وأخيرا "سوأة أخى" كأننا بإزاء جريمتين لا جريمة واحدة، جريمة القتل فى ذاتها، وجريمة إيقاع القتل على أخيه ابن أمه وأبيه، فهذا اللفظ فى الأصل كان مدعاة التحبب والتودد والرعاية والحفظ والتحنان لا الحسد والحقد والقتل والغدر.

ثـــم كانت نهاية المأساة بالندم والحسرة فى قوله تعالى: ﴿ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴾ والفاء تحسم الخلاف الدائر بين العلماء حول سبب ندمه، فمن قائل أن الندم على فراق أخيه وقتله، وأن ندمه لم يقبل لأن الندم فى شريعتهم لم يكن توبة، وقائل: إن الندم كان من أجل تركه بالعراء استخفافا به بعد قتلـــه(٢).

وقد دلت فاء السببية على أن ندمه لكونه عجز عن دفن أخيه إلا بعد أن علمه الغراب ذلك فهذا هو مقصد ندمه وحسرته(٣).

وقوله "**أصبح من النادمين**" أى صار نادما أشد الندامة وقوله "من النادمين" أدل على تمكن الندامة من نفسه من أن يقال نادما لأن إثبات الوصف لموصوف بعنوان كون الموصوف واحدا من جماعة تثبت لهم ذلك الوصف أدل على شدة

---

(١) المثل السائر، ابن الأثير، ج٢ ص ٢١٣.

(٢) ينظر: مفاتيح الغيب، ج١١ ص ٢١٥ وما بعدها والبحر المحيط، ج٣ ص ٤٨٠.

(٣) ينظر: تفسير المنار، ج٦ ص ٢٨٧.

تمكن الوصف منه مما لو أثبت له الوصف وحده، بناء على أن الواحد يزداد تمسكا بفعله إذا كان قد شاركه فيه جماعة"(١).

وأرى ــ أيضا ــ أن مجئ لفظ الجمع هنا وجعله من جملة النادمين إخراج للنبأ من السياق الخاص إلى سياق التربية العام حتى يرغب الناس كل الناس عن هذا الفعل وأمثاله ويبتعدوا عن أسبابه، حتى لا ينضموا إلى فئة النادمين فالتعبير هنا أكثر ثراء وأقوى زجرا وتربية للنفوس، وسبحان من هذا كلامه.

وبهذه الجملة تنتهى حكاية تلك المأساة التى حكت قصة أخوين دب الحسد فى قلب أحدهما فامتدت يده إلى أخيه بالقتل فكان ما كان مما حكاه القرآن، ليكون نبراسا مضيئا لكل نفس فيضئ فى جنباتها النور ويشع فيها إشراقات الخير والسماحة والوداعــة والنقاء، وتعرف معنى حرمــة الدماء، وخطورة الحسد والحقد والكراهية، وكيف جرت هذه الأمــراض على صاحبها شرا مستطيراً فلتتبرأ منها كل نفس ولتجتهد العزائم فى صرف تلك المهلكات حتى لا ينتهى بنا الحال إلى الخسران والندم، وياليت قومى يعلمون !.

هــذا ما وفقنا الله إليه فى دراسة النبأ الذى "سهل الله سبيله وجعله قريبا إلى الإفهام، يبادر معناه لفظه إلى القلب، ويسابق المغزى منه عبارته إلى النفس، وهو مع ذلك متمنع المطلب، عسير المتناول، غير مطمع مع قربه فى نفسه ولاموهم مع دنوه فى موقعــه أن يقدر عليه أو يظفــر به"(٢).

وقد جاء النبأ فخاطب العقل والعاطفة فاستولى على مدارك الإحساس وقد وفى النبأ بحاجة العقل وحاجة العاطفة فى أجمل صورة وأوضح معنى.

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير، ج١ ص ٤٢٧، ج٦ ص ١٧٤.

(٢) إعجاز القرآن الباقلانى، ص ٤٦ ت٠أ/ السيد أحمد صقر، دار المعارف، مصر بدون.

كما أن هناك "عجيبة أخرى لا تجدها فى غير القرآن، لأن الناس إن عمدوا إلى تحديد أغراض لم تتسع لتأويل وإذا أجملوها ذهبوا إلى الإبهام والإلباس أو اللغو الذى لا يفيد ولا يكاد يجتمع لهم هذان الطرفان فى كلام واحد، أما القرآن فإنه يستثمر برفق أقل ما يمكن من الألفاظ فى أكثر ما يمكن من المعانى يستوى فى ذلك مواضع إجماله التى يسميها الناس مقام الإيجاز، ومواضع تفصيله التى يسمونها الإطناب ولذلك نسميه إيجازا كله لأننا نراه فى كلا المقامين لا يجاوز سبيل القصد ولا يميل إلى الإسراف"(١).

فالنبأ الذى لا يتجاوز أسطرا معدودة فيه من لطائف المعانى مالا يستطيع لفظ وصفها يقول أبو فهر: "إن اللغة هى قمة البراعات الإنسانية وأشرفها، وهى أبعد مثالا مما يتصوره المرء بأول خاطر، فماظنك إذا كانت اللغة عندئذ لغة" شعر "أو لغة" كلام مبين"، عندئذ تعيى الألسنة عن الإبانة عن مكنون أسرارها، وتقصر همم ألفاظ النقاد أحيانا كثيرة عن بلوغ ذراها المشمخرة"(٢).

فكلام الله بعطائه الممتد وبحر فيوضاته التى لا تعد مهما وصفه الواصفون وعكف على دراسته البلاغيون فلن يستطيعوا ثبر أغواره وبيان أسراره ذلك"أن فى هذا القرآن سرا خاصا يشعر به كل من يواجه نصوصه ابتداء، قبل أن يبحث عن مواضع الإعجاز فيه، إنه يشعر بسلطان خاص فى عبارات هذا القرآن،يشعر أن هنالك شيئا ماوراء المعانى التى يدركها العقل من التعبير وأن هنالك عنصرا ماينسكب فى الحس بمجرد الاستماع لهذا القرآن يدركه بعض الناس واضحا، ويدركه بعض الناس غامضا ولكنه على كل حال موجود،

---

(١) النبأ العظيم د/ محمد عبد الله دراز، ص ١١.

(٢) نمط صعب ونمط مخيف، الشيخ / محمود شاكر ص ١٦٩، نشر مطبعة المدنى، ط أولى، ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م.

هذاالعنصر الذى ينسكب فى الحس،يصعب تحديد مصدره أهو العبارة ذاتها؟ أهو المعنى الكامن فيها؟ أهو الصور والظلال التى تشعها؟ أهو الإيقاع القرآنى الخاص المتميز من إيقاع سائر القول المصوغ من اللغة؟ أهى هذه العناصر كلها مجتمعة؟ أم أنها هى وشئ آخر وراءها غير محدود؟! ذلك سر مودع فى كل نص قرآنى يشعر به كل من يواجه نصوص هذا القرآن ابتداء ثم تأتى وراءه الأسرار المدركة بالتدبر والنظر والتفكير فى بناء القرآن"(١).

والله أعلم

(١) فى ظلال القرآن، ج٦ ص ٣٣٩٩.

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين الذى منّ علىّ فجعلني في خدمـــة القـــرآن الكـــريم أتلمس المثوبة فى رحابه والنعيم فى جنابه، والصلاة والسلام على محمـــد بـــن عبد الله رسول الله وصفيه ومجتباه من كان قرآنا يمشى علـــى الأرض فكانـــت حياته (ﷺ) تطبيقا واقعيا لكل ما جاء فى القرآن الكريم ــ وكـــان كلامـــه (ﷺ) وحيا من عند الله (ﷻ) فاللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه وكـــل من سار على هديه واستن بسنته ونافح عنها وتمسك بها إلى يوم الدين.

وبعـــد:

فإن لهذا البحث علوقا خاصا فى نفسى، ذاك أن طالب العلم لا يعيش بمعزل عن مجتمعه وآماله وآلامه، هذا المجتمع الذي كفل الإسلام أمنه وسلامته وقراره واستقراره غير أن أحوال مجتمع المسلمين لا يسر الصديق ولا يغيظ العدا، إذ يكثر فيه الاحتراب والاقتتال والبأس الشديد حتى أضحى الأمر من كثرة حدوث ذلك يمر على الأسماع دون وجل أو اندهاش وأصبحت هناك جرأة على الدماء غير مسبوقة وماكان ذلك ليقع في مجتمع المسلمين الذي أمن الناس كل الناس فيه على أنفسهم وأعراضهم وأموالهم إلا بسبب الابتعاد عن نور القرآن الكريم وسنة النبي العظيـــم (ﷺ) فكان هذا البحث أشبه بصرخة أصرخ من خلاله في قومي عسى أن ينتفعوا بهذا النبأ الذي يعالج هذا المرض العضال وهو قادر بأمر الله على شفاء النفوس وتطييب القلوب وزجر من تسول له نفسه أن يتجرأ على الدماء، وبذلك يحل الاستقرار محل الاضطراب، والوئام محل الخصام، والمحبة محل العداوة، والأخوة محل الشقاق ورضي الله من فوق سبع سماوات.

هــذا وقد خلصت الدراسة البلاغية لنبأ ابني آدم إلى عدة نتائج نجملها فيما يلى:

١ــ القصة القرآنية وجه من وجوه الإعجاز القرآني ذات أثر عظيم في تربية النفوس وإرساء دعائم الحق والخير بما تشتمل عليه من مكونات الجمال وعبقرية الأداء، وعناصر التشويق، وتصعيد الأحداث، ورسم الشخصيات، وصولا إلى أعلى درجات التأثير والإقناع.

٢ــ لم يهتم النبأ بذكر الأسماء والأماكن وكيفية التقبل والقتل ونحوه، وذلك لعدم تعلق ذكرها بأى غرض كما أن ذلك يجعل النبأ معنى إنسانيا يتمثل فيه ابن آدم نفسه فى كل وقت ومصر، ولذلك كان تذييل الآيات بصيغة الجمع: "المتقين"، و"الظالمين" و "الخاسرين"، و"النادمين" ليكسب النبأ معنى الشمول والديمومة.

٣ــ النبأ جاء متناسبا مع سمات القصص القرآني المدني من ناحية البناء والهدف. فمن ناحية البناء جاء قصيرا موجزا فى غاية الإيجاز، وذلك ناتج عن عدم احتفاء القرآن المدني بحوادث وقصص السابقين كما هو الحال فى القرآن المكي، وإنما كان هدف القرآن المدني التشريع وتنظيم المجتمع، وهو ما يتناسب مع الهدف والمقصد الذى جاء النبأ من أجله، فهو داخل فى دائرة التشريع إذ هو بمثابة التمهيد لأحكام القتل الرادعة.

٤ــ امتزج النبأ بكافة موضوعات سورة المائدة فجاء مناسبا لمطلعها ومقصدها وموضوعاتها وما قبله من آيات وكذلك مابعده، ولأن القرآن الكريم فى حكم الجملة الواحدة فقد ظهرت أوجه الاعتلاق بين النبأ والفاتحة وسور البقرة وآل عمران والنساء وكذلك وضح التناسب بين النبأ والسياق النزولى

للآيات، وكل ذلك يعد وجها إعجازيا آخر من وجوه إعجاز القرآن الكريم والذى يعد ردا عمليا على أوهام الطاعنين فى ترتيب القرآن الكريم.

٥ــ داخل النبأ الإيجاز بالحذف وكذلك الإيجاز بالقصر وكل ذلك تكثيفا وتركيزا على المعانى الأساسية المراد جعلها فى بؤرة اهتمام المتلقى وتركيزه تاركا فى الوقت ذاته فسحة يتجاوب المتلقى من خلالها مع النص فتحدث المشاركة الوجدانية، وفى ذلك تمام الفائدة.

٦ــ كان الحوار هو الكاشف عن الأحداث والمصعد لها، ولذلك كان الاتصال بين الجمل فى أغلبه قائما على اتصال ذاتى داخلى من خلال شبه كمال الاتصال وقد بينا شيئا من بلاغته.

٧ــ كثرت أساليب التوكيد فى النبأ تبعا لحاجة المعانى ومتطلبات المقام مثل: أسلوب القسم وأسلوب الحصر بـــ "إنما" وتقديم ما حقه التأخير،و"إن"وقد وضح ذلك سابقا.

٨ــ حفل النبأ بنوعى الإنشاء: الطلبى وجاء فيه النداء والاستفهام، وغير الطلبى وجاء منه فى النبأ أسلوب القسم وقد تكرر مرتين، وقد ولجت الدراسة التحليلية إلى شئ من بلاغة تلك الأساليب.

٩ــ كان لحرف العطف "الفاء"، حضور قوى فى الربط بين أحداث النبأ إذ تكررت فيه ثمانى مرات، فحكت سرعة الأحداث وتواليها.

١٠ــ كان استخدام الصورة البيانية من تشبيه واستعارة قليلا وماجاء منها كان أقرب إلى الحقيقة اعتمادا على الحكاية الواقعية للأحداث، ومن عبقرية الأداء أن كل لفظة فيه بل كل حرف وضع وضعا فنيا مقصودا، فيعبر عن المعانى ويرسم مالا تستطيعه ريشـــة أعظم رسام.

١١ــ اشتمل النبأ على ألوان من البديع كالجناس والطباق والمقابلة وكلها قد استدعاها المقام وتطلبها المعنى.

١٢ــ النبأ يمثل نموذجا دعويا في التعامل مع أمراض النفوس والمجتمع بما فيه من ترغيب وترهيب وتعريض يفتح مغاليق القلوب، ويضئ ظلام العقول.

١٣ــ النبأ آيات من كتاب الله فيه ما في القرآن الكريم من براعة النظم، ودقة الصياغة وجودة السبك، وقوة الحبك، وثراء المعاني وتزاحم النكات، وتوالى الأسرار، وكل ذلك من شأنه إصلاح القلوب، وتثقيف العقول، وتربية النفوس، قال تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ النحل: ٨٩ .

"**صدق الله العظيم** "، والحمد لله رب العالمين

رضا السعيد فايد

ليلة ميلاد المصطفى (ﷺ)

الثاني عشر من ربيع الأول ١٤٣٥هـ.

ثبت المصادر والمراجع

١ــ آراء المستشرقين حول القرآن وتفسيره د/ عمر إبراهيم، دار طيبة للنشر، الرياض، بدون.

٢ــ آل حم "الجاثية والأحقاف" دراسة فى أسرار البيان د/ محمد أبو موسى، مكتبة وهبة ط أولى ١٤٣١هـ / ٢٠١٠م.

٣ــ الإتقان فى علوم القرآن، السيوطى،ت٠أ/ سعيد المندوب، دار الفكر، لبنان، ط أولى ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.

٤ــ الإحكام فى أصول الأحكام، ابن حزم الطاهرى، ت٠أ/ زكريا يوسف، ط الثانية، القاهرة.

٥ــ أسئلة بيانية فى القرآن الكريم د/ فاضل السامرائى مكتبة التابعين، القاهرة، ط أولى ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م.

٦ــ أسرار البلاغة، الشيخ عبد القاهر الجرجانى، ت٠الشيخ/ محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجى، القاهرة، ط أولى ١٩٩١م.

٧ــ أسرار الفصل والوصل د/ صبَّاح دراز، مطبعة الأمانة ط ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٣م.

٨ــ الأساس فى التفسير، الشيخ/ سعيد حوى، دار السلام، ط السادسة ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.

٩ــ أسلوب الحوار فى القرآن الكريم د/ عبد الحليم حفنى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط الثانية، بدون.

١٠ــ أسلوب الدعوة القرآنية بلاغة ومنهاجا د/ عبد الغنى بركة، مكتبة وهبة، ط أولى ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.

١١ــ أسلوب القسم فى ضوء استعمالاته فى القرآن الكريم، د/ أحمد عبد العزيز عبدالله، دار الطباعة المحمدية، ط أولى ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م.

١٢ــ أسلوب القسم واجتماعه مع الشرط فى رحاب القرآن الكريم، أ/ على أبو القاسم عون، منشورات جامعة الفتح، ط ١٩٩٢م.

١٣ــ الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغة، د/ صبَّاح دراز، مطبعة الأمانة، ط أولى ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.

١٤ــ أساليب النفى فى القرآن الكريم، د/ أحمد ماهر البقرى، دار الناشر الجامعى، الإسكندرية، ط ١٩٨٠م.

١٥ــ أسماء الله الحسنى، دراسة فى البنية والدلالة، د/ أحمد مختار عمر، عالم الكتب، ط أولى ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

١٦ــ الأسماء والصفات، الإمام البيهقى، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٧ــ الإعجاز البيانى فى ترتيب آيات القرآن الكريم، وسوره د/ محمد أحمد القاسم، دار المطبوعات الدولية، ط ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م.

١٨ــ الإعجاز البيانى فى صيغ الألفاظ، د/ محمد الأمين الخضرى، مطبعة الحسين الإسلامية، ط أولى ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.

١٩ــ الإعجاز الصوتى فى القرآن الكريم، د/ عبد الحميد هنداوى، الدار الثقافية للنشر، ط أولى ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

٢٠ــ إعجاز القرآن، الباقلانى، ت٠ أ/ أحمد السيد أحمد صقر، دار المعارف، مصر، بدون.

٢١ــ إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعى، دار الكتاب العربي، بيروت، ط التاسعة ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م.

٢٢ــ الإعجاز القصصى فى القرآن، د/ سعيد مطاوع، ط أولى ٢٠٠٦م.

٢٣ــ الاقتضاب شرح أدب الكتاب، البطليوسى، ت٠ أ/ مصطفى السقا وآخرين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط ١٩٨٢م.

٢٤ــ إملاء ما من به الرحمــن من وجوه الإعراب والقراءات فى جميع القرآن، أبو البقاء العكبرى، دار الفكر، بيروت، ط أولى ١٤٠٦هــ / ١٩٨٦م.

٢٥ــ الأمالى الشجرية، ابن الشجرى ت٠د/ محمود محمد الطناحى، مكتبة الخانجى، القاهرة، بدون.

٢٦ــ الإيضاح، الخطيب القزوينى، ت٠د/ محمد خفاجى، دار الجيل، بيروت.

٢٧ــ البحر المحيط، أبو حيان الأندلسى، ت/ الشيخ/ عادل عبد الموجود وآخرين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط أولى ١٤١٣هــ / ١٩٩٣م.

٢٨ــ البحر المديد فى تفسير القرآن المجيد، ابن عجيبة، ت٠ أ/ وحيد قطب٠ المكتبة التوفيقية، بدون.

٢٩ــ بدائع الإضمار القصصى فى القرآن الكريم، د/ كاظم الظواهرى، ط أولى ١٤١٢هــ/ ١٩٩١م.

٣٠ــ بدائع الفوائد ابن القيم، ت٠أ/ سيد عمران وآخرين، دار الحديث، القاهرة ط ١٤٢٣هــ/ ٢٠٠٢م.

٣١ ــ البرهان في علوم القرآن، الزركشى، ت٠أ/ محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

٣٢ــ البرهان فى نظام القرآن، د/ محمد عناية الله سبحانى، دار الكتب، ط أولى ١٤١٤هــ / ١٩٩٤م.

٣٣ــ البلاغة العالية "علم المعانى"، د/ عبد المتعال الصعيدى، المكتبة السلفية، بدون.

٣٤ــ البيان القرآنى د/ محمد رجب البيومى، الدار المصرية اللبنانية، ط أولى ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م.

٣٥ــ البيان والتبيين، الجاحظ ت٠أ/ فوزى عطوى، دار صعب، بيروت، ط أولى ١٩٨٦م.

٣٦ــ التبيان فى أقسام القرآن، ابن القيم، ط مكتبة الأنصار المحمدية، بدون.

٣٧ــ تاج العروس من جواهر القاموس، محمد مرتضى الزبيدى، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، بدون.

٣٨ــ تاريخ نزول القرآن الكريم، د/ محمد رأفت، سعيد ط ٢٠٠١م.

٣٩ــ التصوير البيانى د/ محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، ط الرابعة ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

٤٠ــ التصوير الفنى فى القرآن الكريم، سيد قطب، دار الشروق، ط السادسة عشرة، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

٤١ــ التعبير الفنى فى القرآن الكريم، د/ بكرى شيخ أمين، دار العلم للملايين، ط أولى ١٩٩٤م.

٤٢ــ التعريض فى القرآن الكريم، د/ إبراهيم الخولى، دار البصائر، ط أولى ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م.

٤٣ــ التعريفات، الشريف الجرجانى ت٠أ/ إبراهيم الأنبارى، دار الكتاب العربى، بيروت، ط أولى ١٤٠٥هـ.

٤٤ــ تفسير أبى السعود المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب العزيز، أبو السعود العماوى، ط الرابعة ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

٤٥ــ تفسير الأجزاء العشرة الأولى، الشيخ/ محمود شلتوت، دار القلم، ط الرابعة ١٩٩٦م.

٤٦ــ التفسير البلاغى للاستفهام في القرآن الكريم، د/ عبد العظيم المطعنى، دار الكتب العلمية، بيروت، ط أولى ١٤١٨هـــ/ ١٩٩٨م.

٤٧ــ التفسير البيانى للقرآن الكريم، د/ عائشة عبد الرحمن، دار المعارف، ط الخامسة، ١٣٨٨هـــ / ١٩٦٨م.

٤٨ــ تفسير سورة المائدة د/ مصطفى العدوى، مكتبة مكة، ط أولى ١٤٢٥هـــ/ ٢٠٠٤م.

٤٩ــ تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ت٠أ/ هانى الحاج، المكتبة التوفيقية، بدون.

٥٠ــ تفسير القاسمى المسمى محاسن التأويل، محمد جمال الدين القاسمى، ت٠أ/محمد باسل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط أولى ١٤١٨هـــ/ ١٩٩٨م.

٥١ــ التفسير الكبير "مفاتيح الغيب"، الرازى، دار الفكر العربى، بدون.

٥٢ــ تفسير المراغى، الشيخ/ أحمد مصطفى المراغى، دار الكتب العلمية، بيروت، ط أولى ١٤١٨هـــ/ ١٩٩٨م.

٥٣ــ تفسير المنار، الشيخ/ محمد رشيد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، بدون.

٥٤ــ التفسير المنير فى العقيدة والشريعة والمنهج، د/ وهبة الزحيلى، دار الفكر، ط العاشرة ١٤٢٠هـــ / ٢٠٠٠م.

٥٥ــ تفسير الماوردى المسمى النكت والعيون، الماوردى، ت٠أ/ السيد عبدالمقصود عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان بدون.

٥٦ــ تناسق الدرر فى تناسب السور، السيوطى، ت٠أ/ عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط أولى ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

٥٧ــ جامع البيان فى تفسير القرآن، الطبرى، دار المعرفة، بيروت. لبنان، ط الرابعة ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

٥٨ــ الجامع لأحكام القرآن، القرطبى، دار الريان للتراث، بدون.

٥٩ــ الجانب الفنى فى قصص القرآن الكريم، د/ عمر محمود عمر، دار المأمون للتراث، ط أولى ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.

٦٠ــ الجنى الدانى فى حروف المعانى، المرادى، ت٠د/ فخر الدين قباوة، ت٠أ/محمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط أولى ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.

٦١ــ جواهر البيان فى تناسب سور القرآن، ت٠أ/ أبو الفضل عبد الله الغمارى الحسنى، مكتبة القاهرة، بدون.

٦٢ــ جوهر الكنز، ابن الأثير الحلبى، ت٠د/ محمد زغلول سلام، منشأة المعارف، الإسكندرية، بدون.

٦٣ــ حروف المعانى، الزجاجى، ت٠د/ على توفيق الحمد، مؤسسة الرسالة، ط الثانية ١٤٠٦هـ.

٦٤ــ حاشية الشهاب على تفسير البيضاوى، الشيخ/ عبد الرزاق السنهورى، دار الكتب العلمية، بيروت، ط أولى ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م٠٠

٦٥ــ حاشية الشيخ زادة على تفسير البيضاوى، المكتبة الإسلامية، بدون.

٦٦ــ حاشية القونوى على تفسير الإمام البيضاوى ومعه حاشية ابن التمجيد لمصلح الدين الرومى، ت٠د/ عبد الله محمود عمر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط أولى ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

٦٧ــ حياة الحيوان الكبرى، الدميرى ت٠أ/ سعد الفارسى، دار طلال، ط ١٩٩٢م.

٦٨ــ الخصائص، ابن جنى، ت٠أ/ عبد الحكيم بن محمد، المكتبة التوفيقية، بدون.

٦٩ــ خصائص التراكيب، د/ محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، ط الخامسة ١٤٢١هـــ/ ٢٠٠٠م.

٧٠ــ خصائص التعبير القرآنى وسماته البلاغية، د/ عبد العظيم المطعنى، مكتب وهبة، ط أولى ١٤١٣هـــ / ١٩٩٢م.

٧١ــ الدر المصون فى علوم الكتاب المكنون، السمين الحلبى، ت٠د/ أحمد الخراط، دار القلم، دمشق، بدون.

٧٢ــ دراسات فى التفسير الموضوعى للقصص القرآنى، د/ أحمد جمال العمرى، مكتبة الخانجى، القاهرة، ط الثانية ١٤٢١هـــ/ ٢٠٠١م.

٧٣ــ دراسات فى علوم القرآن، د/ فهد الرومى، مكتبة الملك فهد، ط الرابعة عشرة ١٤٢٦هـــ/ ٢٠٠٥م.

٧٤ــ دراسات لأسلوب القرآن الكريم، الشيخ/ محمد عبد الخالق عضمية، دار الحديث، القاهرة، بدون.

٧٥ــ دقائق الفروق اللغوية فى البيان القرآنى، د/ محمد ياسى خضر الدورى، ط٢٠٠٥م.

٧٦ــ دلائل الإعجاز، الشيخ/ عبد القاهر الجرجانى ت، الشيخ/ محمود شاكر، مكتبة الخانجى، القاهرة ط الثانية ٢٠٠٤م.

٧٧ــ دلالات التراكيب د/ محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، ط الثانية ١٤٠٨هـــ/١٩٨٧م.

٧٨ــ رصف المبانى فى شرح حروف المعانى، المالقى، ت٠د/ أحمد الخراط، مطبوعات مجمع اللغة العربية، بدمشق، بدون.

٧٩ــ روائع الإعجاز فى القصص القرآنى، د/ محمود السيد حسن، المكتب الجامعى الحديث، ط ١٩٨٢م.

٨٠ــ روح المعانى في تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى الألوسى، دار الفكر، بيروت، ط ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

٨١ــ زاد السير فى علم التفسير، ابن الجوزى، ت٠أ/ أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط أولى ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

٨٢ــ زهرة التفاسير، الشيخ/ محمد أبو زهرة، دار الفكر العربى، بدون.

٨٣ــ سبل استنباط المعانى من القرآن والسنة، د/ محمود توفيق سعد، مكتبة وهبة، ط أولى، بدون.

٨٤ــ السيرة النبوية وأوهام المستشرقين، أ/ عبد المتعال الجابرى، مكتبة وهبة، بدون.

٨٥ــ شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، ت٠د/ محمد عبد المنعم خفاجى، مكتبة الإيمان، المنصورة.

٨٦ــ شرح التسهيل، ابن مالك، ت٠أ/ عبد الرحمن السيد وآخرين، مكتبة هجر، ط أولى ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

٨٧ــ شرح جمل الزجاجى ابن عصفور، ت٠أ/ فواز السكار، دار الكتب العلمية، ط ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.

٨٨ــ شرح الرضى على الكافية، ت٠د/ يوسف حسن عمر، منشورات جامعة قاريونس، بنغازى، بدون.

٨٩ــ شرح عقود الجمان، السيوطى، دار إحياء الكتب العربية، بدون.

٩٠ــ شرح المفصل، ابن يعيش، عالم الكتب، بيروت، بدون.

٩١ــ الصبغ البديعى٠ د/ أحمد موسى، دار الكتاب العربى، بيروت، ط ١٣٨٨هـــ/ ١٩٦٩م.

٩٢ــ صحيح البخارى، الإمام البخارى، ت٠د/ مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، بيروت، ط الثالثة، بدون.

٩٣ــ صحيح مسلم، الإمام مسلم، ت٠أ/ محمد فؤاد عبد الباقى، دار إحياء التراث العربى، بيروت، لبنان، بدون.

٩٤ــ صيد الخاطر، ابن الجوزى، ت٠د/ السيد محمد السيد، دار الحديث، القاهرة ط الثانية ١٤١٩هـــ/ ١٩٩٩م.

٩٥ــ الظاهرة القرآنية، مالك بن نبى دار الفكر المعاصر، بيروت، ط الرابعة ١٤٢٠هـــ/ ٢٠٠٠م.

٩٦ــ العزف على أنوار الذكر، معالم الطريق إلى فقه المعنى القرآنى فى سياق السورة، د/ محمود توفيق سعد، مكتبة وهبة، ط الثانية ١٤٢٤هـــ.

٩٧ــ علوم القرآن د/ عبد الله شحاته، دار غريب للطباعة والنشر، بدون.

٩٨ــ علوم القرآن د/ عدنان زرزور، نشر المكتب الإسلامى، ط أولى ١٤٠١هـــ/ ١٩٨١م.

٩٩ــ العمدة فى محاسن الشعر وآدابه، ابن رشيق ت٠أ/ محمد محى الدين عبد الحميد دار الجيل للنشر والتوزيع، ط الخامسة ١٤٠١هـــ/ ١٩٨١م٠

١٠٠ــ فتح البيان فى مقاصد القرآن، أبو الطيب صديق القنوجى، ت٠أ/ إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٢٠هـــ / ١٩٩٩م٠

١٠١ــ فتح الرحمن شرح ما يلتبس من القرآن، الشيخ/ زكريا بن محمد الأنصارى، دار الكتب العلمية، بيروت، ط أولى ١٤٢٤هـــ/ ٢٠٠٣م٠

١٠٢ــ فتح القدير الجامع بين فنى الرواية والدراية فى علم التفسير، الإمام الشوكانى ت٠د/ عبد الرحمن عميرة، ط أولى ١٤١٥هـــ/ ١٩٩٤م٠

١٠٣ــ الفتوحات الإلهية، سليمان بن عمر الشهير بالجمل، دار الفكر، ط ١٤١٥هـــ/١٩٩٤م٠

١٠٤ ــ الفروق فى اللغة، أبو هلال العسكرى، ت/ لجنة إحياء التراث العربى، منشورات دار الآفاق الجديدة، ط الخامسة ١٤٠٣هـــ/ ١٩٨٣م٠

١٠٥ــ الفروق اللغوية وأثرها فى تفسير القرآن الكريم، د/ محمد الشايع، مكتبة المبيكان، ط أولى ١٤١٤هـــ / ١٩٩٣م٠

١٠٦ــ فوائد فى مشكل القرآن، عز الدين بن عبد السلام، ت٠د/ سيد رضوان المندوى، دار الشروق ط الثانية ١٤٠٢هـــ / ١٩٨٢م٠

١٠٧ــ فى ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، ط ١٤١٥هـــ / ١٩٩٥م٠

١٠٨ــ القرآن نزوله تدوينه ترجمته وتأثيره، بلا شير ترجمة، أ/ رضا سعادة، دار الكتاب اللبنانى، بيروت، ط أولى ١٩٧٤م٠

١٠٩ــ القصص القرآنى وأثره فى استنباط الأحكام، د/ أسامة حمزة، ط الثانية ١٤٢٩هـــ/ ٢٠٠٨م٠

١١٠ــ قطف الأزهار فى كشف الأسرار، السيوطى، ت٠د/أحمد حمادى، إصدار وزارة الأوقاف القطرية، بدون٠

١١١ــ قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله (ﷻ) د/ عبد الرحمن حنبكة، دار القلم، ط الثانية ١٤٠٩هـــ/ ١٩٨٩م٠

١١٢ــ الكتاب، سيبويه، ت٠أ/ عبد السلام هارون، مكتبة الخانجى، ط الثالثة ١٤٢٨هـــ/ ١٩٨٨م٠

١١٣ــ الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل، الإمام الزمخشرى، دار الفكر، ط أولى ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م٠

١١٤ــ الكناية مفهومها وقيمتها البلاغية، د/ محمود شاكر القطان، مطابع الأهرام ط ١٩٩٣م٠

١١٥ــ لسان العرب ابن منظور، دار صادر، بيروت٠

١١٦ــ المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر ابن الأثير، ت٠د/ أحمد الحوفى ود/بدوى طبانة، دار نهضة مصر، القاهرة، بدون٠

١١٧ــ المجتمع المثالى كما تنظمه سورة النساء، أ/ محمد المدنى، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، بدون٠

١١٨ــ مجمع البيان فى تفسير القرآن، الطبرسى، دار الفكر العربى، ط ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م٠

١١٩ــ المحرر الوجيز، ابن عطية الأندلسى، ت٠أ/ عبد السلام عبد الشافى محمد، دار الكتب العلمية، لبنان، ط أولى ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م٠

١٢٠ــ مراصد المطالع فى تناسب المقاطع والمطالع السيوطى، ت٠أ/ عبد المحسن العسكر، دار المنهج فى النشر والتوزيع، الرياض، ط أولى ١٤٢٦هـ٠

١٢١ــ المرايا المحدبة، د/ عبد العزيز حمودة، عالم المعرفة، العدد ٢٣٢٠

١٢٢ــ المرايا المقعرة، د/ عبد العزيز حمودة، عالم المعرفة، العدد ٢٧٢٠

١٢٣ــ المستدرك على الصحيحين، الحاكم النيسابورى، ت٠أ/ مصطفى عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان٠

١٢٤ــ مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، البقاعى ت٠د/عبدالسميع حسنين، مكتبة المعارف، بدون٠

١٢٥ــ معترك الأقران فى إعجاز القرآن، السيوطى، ت٠أ/على البجاوى، دار الفكر العربى، مصر٠

١٢٦ــ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، أ/ محمد فؤاد عبد الباقى، مطبعة دار الكتب المصرية، بدون٠

١٢٧ــ مع القرآن الكريم فى دراسة مستلهمة، أ/ على النجدى ناصف، دار المعارف بدون٠

١٢٨ــ مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب، ابن هشام الأنصارى، ت٠أ/محى الدين عبد الحميد المكتبة العصرية، بيروت بدون٠

١٢٩ــ مفتاح العلوم، السكاكي، ت٠أ/ نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط أولى ١٤٠٤هـــ/ ١٩٨٣م٠

١٣٠ــ مفاتيح للتعامل مع القرآن، د/صلاح الخالدى، دار القلم، دمشق، ط الثانية ١٤١٥هـــ/ ١٩٩٤م٠

١٣١ــ المفردات فى غريب القرآن، الراغب الأصفهانى، ت٠أ/ وائل عبد الرحمن، المكتبة التوفيقية، القاهرة بدون٠

١٣٢ــ المقصد الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى، أبو حامد الغزالى، ت٠أ/ محمد عثمان الخشت، القاهرة ط ١٩٨٥م٠

١٣٣ــ من أسرار حروف الجر فى الذكر الحكيم، د/ محمد الأمين الخضرى، مكتبة وهبة، ط أولى ١٤٠٩هـــ/ ١٩٨٩م٠

١٣٤ــ من أسرار حروف العطف فى الذكر الحكيم، " الفاء وثم " د/محمد الأمين الخضرى، مكتبة وهبة، ط أولى ١٤١٤هـــ/ ١٩٩٣م٠

١٣٥ــ من بلاغة أسلوب المقابلة فى القرآن الكريم، د/ فتحية العقدة، مطبعة الأمانة، ط أولى ١٤٢٢هـــ/ ٢٠٠٢م٠

١٣٦ــ مناهل العرفان فى علوم القرآن، الشيخ/ محمد عبد العظيم الزرقانى ت٠أ/فؤاد أحمد زمرلى، دار الكتاب العربى، ط أولى ١٤١٥هـــ/ ١٩٩٥م٠

١٣٧ــ الموافقات فى أصول الشريعة، أبو إسحاق الشاطبى، ت، الشيخ/ عبدالله دراز، المطبعة الرحمانية، بدون٠

١٣٨ــ النبأ العظيم د/ محمد عبد الله دراز، دار الثقافة، الدوحة، ط١٤٠٥هـــ/١٩٨٥م

١٣٩ــ نظرات فى البعد النزولى للقرآن الكريم، د/ عدنان زرزور، بدون٠

١٤٠ــ نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور، البقاعى، ت٠أ/ عبد الرازق غالب المهدى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان٠

١٤١ــ النظم الفنى فى القرآن الكريم الشيخ/ عبدالمتعال الصعيدى، مكتبة الآداب، بدون٠

١٤٢ــ نمط صعب ونمط مخيف، الشيخ/ محمود شاكر، نشر مطبعة المدنى، ط أولى ١٤١٦هـــ / ١٩٩٦م٠

١٤٣ــ الوحدة الفنية فى القصة القرآنية، د/ محمد الدالى، ط أولى ١٤١٤هـــ/١٩٩٣م٠

المجلات:

١ــ مجلة المجلة، العدد السابع، ذو الحجة ١٩٥٧م٠

٢ــ مجلة المقتطف، عدد يونيو ١٩٥٤م٠

فهرست الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٦٧٥
التمهيد:	٦٨١
ــ في رحاب المنهج	٦٨١
ــ ملامح القصة في البيان القرآني	٦٨٨
الفصل الأول:	٦٩٤
ــ نبأ ابنى آدم في السياق القرآنى العام	٦٩٤
التمهيد:	٦٩٤
ــ المبحث الأول: علاقة النبأ بما قبله وبما بعده	٦٩٦
ــ المبحث الثانى: علاقة النبأ بسورة المائدة مطلعا ومقصدا	٧٠٠
ــ المبحث الثالث: علاقة النبأ بسورة البقرة وآل عمران والنساء	٧٠٩
ــ المبحث الرابع: علاقة النبأ بسورة الفاتحة	٧١٢
ــ المبحث الخامس: علاقة النبأ بالقرآن المدنى "النبأ فى سياقه النزولى"	٧١٨
الفصل الثانى: في رحاب الدراسة التحليلية للنبأ	٧٢٦
التمهيد:	٧٢٦
ــ عناصر قصة ابني آدم	٧٢٦

ــ المعنى العام للنبأ	٧٢٩
فى رحاب الدراسة التحليلية	٧٣٠
الخاتمة	٨٢٠
ثبت المصادر والمراجع	٨٢٤
فهرست الموضوعات	٨٣٧